

سهرت منه الليالي
علي الدوعاجي
الدار التونسية للنشر
35
TUNIS
تونس

سهرت منه الليالي

وهيبة قوية

معرض الكتاب 1989

بقلم

علي الدوعاجي

الطبعة الثالثة عشرة

الدار التونسية للنشر

الدوعـاجـي (علـي)
– سهرت منه الليـالـي . ط . 13 – تونـس :
الدار التونسية للنشـــر ،التونسية للطباعة وفنون الرسم
1987 . 21 سم ، 135 ص .
رقم الايـداع القانونـي بدار الكتب الوطنـية

383 – نوفمبر 1987

مقدمة

تفيض هذه المجموعة القصصية بروح الدوعاجي الفنية التى تتبدى فيها الوان من الواقع الشعبى فى رقة تعبير وبراعة خيال ، فلم ينفك الدوعاجي يكرع من أيام شقوته وفنه الى ان التحم بصميم مشاغل الناس وتطلّع لهم فى الاحياء الشعبية فكتب (أدبا كبيرا) يتسم بجمال التعبير ونفاذه وببراعة الصور وتالقهـا .

لهـذا رأينا اعادة نشر هذه المجموعة تعميما للفائدة واحياء لذكرى أديب كبير .

الدار التونسية للنشر

تقديم : عز الدين المدني

على الدوعاجي الكاتب البائر !...

يجد الدارس الجامع لما خلفه علـى الدوعاجي من أدب وقصة ومسرح وشعر عقبات كثيرة وكبيرة تصده عن سبيله ، ذلك ان أدبه مشتت ومبعثر في المجلات والصحف وحتى النشريات التى صدرت خلال الثلث الثانى من هذا القرن بتونس ، ولأن انتاجه المخطوط كالمسرحيات وبعض القصص وعدد من الرسائل ما زال كذلك في ملك عدد من أصدقائه الذين ما يزالون على قيد الحياة ••• فكأنك تبحث عن انتاج أدبى مجهول لأديب غريب عاش في القرون الوسطى وفي بلاد غير بلادنا ! إذ ان علي الدوعاجي قد توفي منذ عقدين فقط ! (1) •••

وهذا الكتاب الذى يسر « نادى القصة » ويتشرف بتقديمه اليوم الى حضرات القراء يتضمن ما استطعنا التوصل الى جمعه ونشره من قصص مؤلفنا ، يقينا منا بأن هذا السفر هو مساهمة متواضعة في التعريف بعلى الدوعاجي الذى قاسى مرارة « الغلبة » وضيق البوار ومحنة الغبن طوال حياته ، وفي ان يتبوأ علي الدوعاجي المكانة اللائقة به في الادب التونسي الحديث خاصة والعربى المعاصر عامة •

---

(1) يقول الدكتور غازى ان له رواية عنوانها : « شارع الاقدام المخضبة » فمن هو الذي يملك هذه الرواية المخطوطة ؟
(انظر قصص العرب المعاصرين) منشورات الديوان التربوى سنة 1960 ص 216 .

ونحن لم نتجشم بعض الصعاب لو لم ندرك اهمية هـذا الكاتب القصصي وقيمة انتاجه • وفعلا ، فان الدارس النزيه الذى يبحث فى شؤون الادب التونسى المعاصر يتبيّن بوضوح وجلاء ان عـلى الدوعـاجى هو الكاتب القصصى الوحيد الذى يمثل التمثيل الصحيـح ـ فنـا ومعنـى ـ المجتمـع الشعبى التونسى في الثلث الثاني من القرن العشرين ، وهـو حامـل مشعل الادب فى تونس بعد أبى القاسم الشابى ، وهو « ابو القصة التونسية » (1) الحديثة بلا منازع ! ...

* * *

ولد على الدوعاجي بحاضرة تـونس سنة 1909 وتوفى بهـا سنـة 1949 • وكـانت اسـرته تنتمي للطبقـة البـورجوازية الصغيـرة • وقـد تعلـم العـربية والفـرنسية فى المـدرسة الابتدائية • وبعد سنوات من ذلك عمل « قلفة » عند احد كبار تجار الاقمشة بالعاصمة • وكان فى تلك الاثناء يعلـم نفسـه بنفسه ويمعن فى مطالعة الروايـات والـدواوين بالفـرنسية والعربية • ولم يطق صبرا ، فانقطع عن التجارة ، وصار يتردد على المجالس الفكرية والمقاهى الادبية • وقد اتصل بأبى القاسم الشابى ثم بالطاهر الحداد حسب ما اكده لنا الاستاذ المرحوم محمّـد الصـالح المهيـدى • وخـالط ادبـاء عصره لا سيمـا زين العابدين السنوسى يوم كان يصدر مجلة « العالم الادبى » ، كما عاشر طويلا القصاص محمد العريبى ، والكاتب المسرحى عبـد الـرزاق كـربـاكـة ، والشـاعر مصطفى خـريـف ، والفنـان محمـود بيـرم التـونسى ، والصحـافى الهـادى العبيـدى . والكـاتب الاجتمـاعى عبـد العـزيـز العـروى ،

---

(1) « التجديد » عدد نوفمبر 1962 ـ تونس : الدوعاجى فنان الغلبة الاستاذ توفيق بكار .

و « شاوش الهيئة الاجتماعية » علي الجنــدوبي كما كان يلقب نفسه بذلك ، ومحمد بن فضيلــة صاحب صحيفة « الــوطن » الهــزلية ، وغيرهم من الشعراء والفنانين • وكانــوا جميعـا يجتمعون بمقهى « تحت السور » بربض باب سويقة الشعبي • وكانوا اخوانا في « البوهيمية » والادب والفــن والفاقة وربما التعاسة ، وباختصار في « اتراحهم وافراحهم » حسب تعبيره• وقد خلف علي الدوعاجي لوحات مشرقة جدا عن هذا « المجتمع البوهيمي » في صحيفة « الاسبوع » الاسبوعية (1) تذكرنا كما يقول الدكتور محمد فريد غازي برسوم الفنان عمار فرحــات ذات الطابع العفوي الرقيق والملامح الانسانية العميقة (2) •

وأكد لنا بعض اصدقائه الادباء : أن علي الدوعاجي كان دائم البشاشة ، ذكيا فطنا ، وصاحب نكتة لاذعة ، ولا يبسط يده ولا يمسكها ، مولعا باللهو ومغرما كذلك بالجد • لا مجال للشك في هذه الشهادة خصوصا اذا طــالعنا قصصه ومقــالاته واذا عرفنا انه كان مصورا كاريكاتوريا بارعا (3) •

لقد عاش علي الدوعاجي أعزب طــوال حيــاته ، كعــدد من اخوانه في « البوهيمية » • وقال لنا صديق له عرفه عن كثب : انه كان يحب فتاة يهــودية من « حــارة » تونس • ولاسباب اجتماعية ونفسانية ، تناول علي الدوعاجي مع عدد من رفــاقه للخدرات ، وأمعن في ذلك كل الامعان حتى تعفنت رئتاه فنقل الى مستشفى « الرابطة » ومات فيه بمرض السل يوم 27 ماي

---

(1) تحت الصور ــ « الاسبوع » اعداد : 25 و 26 و 28 سنة 1946 .
(2) الانســانية في القصــة التــونسية المعــاصرة ــ العــدد الاول من مجلة « اللغات » .
(3) انظر مثلا صور « جولة حول حانــات البحــر الابيض المتــوســط » نشر « الشركة القومية للنشر والتوزيع » سنة 1962 .

سنة 1949 (1) .

لم يعرف علي الدوعاجي والده ؛ فلقد توفي ابـوه وهو في الخامسة من عمره . وكان محل عناية وعطف ورقـة من قبـل والدته التي توفيت بعده ببضع سنوات . وكان علي الدوعاجي يعيش عيشـة الكفـاف والتقشف إن لم تكن حيـاة الضيـق والحرج ، اذ كان مورد رزقه الوحيد هو ما كان يتقاضاه من مال من « الأوقاف » على حسـاب ميراث خلفه له « الأجداد » .

* * *

إني أحب علي الدوعاجي ، لأنه فنـان مـؤمن بفنه الى حـد الهوس . بل التقديس ، كما كان ابو القـاسم الشـابي مؤمنا بشعره ، والطاهر الحداد مخلصا لافكاره الاصـلاحية وآرائـه التحررية ومعتقداته التقدمية . وقد اطلق علي الدوعـاجي على نفسه اسم « فلاديمة » ذلك العبد الاسود الذي يعاضد العمال في اشغالهم المـرهقة بالتـرنم والغنـاء والمـوسيقى ليسليهم وليخفف عن كواهلهم اثقال الحياة ، وقساوة الشغل واستغلال البورجوازية والمستعمر لهم . « وان ذلك (الترنم) لهو عمل ايضا (2) ! » ...

هكذا كان علي الدوعاجي يـؤمن بفنـه ويخلص لادبه . وما احوجنا اليوم الى ان نشاهد الكتّاب والشعراء يؤمنـون بفنهم كايمانه ويخلصون له كاخـلاصه . وهكذا نـرى ايضا ان علي الدوعـاجي فنـان معـاصر لنا بكل ما في هـذا التعبيـر من التجدد والتقدم !...

---

(1) انظر مقال زين العابدين السنوسي في مجلة « الندوة » .

(2) انظر افتتاحيته التي كتبها في العدد الاول من جريدته الهزلية « السرور » التي اصدرها يوم 30 ارت 1936 .

ويعطينا علي الدوعاجي رأيه في فنه فيقول :

« ان القصة في حقيقتها صورة صادقة لمنظر شاذ ، وعلى شذوذه هذا لا يستغربه القارئ ولا يستنكره • وان كاتب القصة هو عرض الواقع البحت بكلمات واضحة نيرة ، وأن يمسك زمام قلمه عن التعاليق الزائدة ، وعن وصف شعورة الشخصي وعن الوعظ الثقيل (1) » •

فهذه هي نظريته الجمالية في فن القصة التي نجدها مطبقة في كافة قصصه ولوحاته• « فنزهة رائقة » تبدو شاذة للقارئ لما يجد فيها من الصور الكاريكاتورية المتنافرة ومن سلبية مواقف الشخصية الرئيسية فيها • لكنها ليست شاذة في الحقيقة ، بل هي أنموذج لمجموعة من الشخصيات الناشزة والمواقف المنحرفة ، فلا يستغربها القارئ بعد الانتهاء من مطالعتها ، ولا يستنكر ما جاء فيها من نقد مبطن مضمن !••• ضد البورجوازية او الاشخاص الذين يتصنعونها ويتكلفونها •

وكأني بالدكتور محمد فريد غازي قد فطن الى هذه القاعدة القصصية في فن علي الدوعاجي فقال : « انه ادرك جوهر القصة » (2) !

وكأني كذلك بالاستاذ توفيق بكار قد ادرك معاني ذلك « الشذوذ الفني القصصي » عند الدوعاجي ، فقال : « فالواقع في رأي الاديب الحق معدن الادب يقتطع منه الكاتب – بعد التخير – مادته الخام ثم يقبل على هذه المادة كما يقبل الخزاف على عجينته ، ولا يزال يتدبرها بثاقب فكره تصورا وتصميما

---

(1) القصة في الادب المغربي الحديث « الثريا » السنة الثالثة عدد 5 ماي 1946 .

(2) قضية القصة التونسية « الفكر » السنة 4 – العدد 7 – افريل 1959 .

ويعالجها بخالص فنه تمثيلا وتجسيما حتى يسويها بين تحفة أدبية (1) » .

وهذا رأى جمالي كله صحة اذا علمنا ان علي الدوعاجي كان يقول بعدم التعليق وبالتجرد والرغبة عن القاء الدروس في الوعظ . ذلك ان طريقته كانت تعتمد اساسا على استخدام « عين الكاميرا » كما يقول الدكتور محمد فريد غازي (2) على شاكلة الكتاب الأمريكان ؛ واذا علمنا كذلك ان علي الدوعاجي كان يبحث دائما عن العقدة !...

ولا نحب ان يذهب الظن بالقارىء فيحسب علي الدوعاجي مقلدا للطرق الفنية والمناهج الجمالية في القصة الغربية الفرنسية منها والامريكية ، وغير عارف باختيار الشكل الملائم للمضمون ، ولا مدرك لانتقاء المضمون الضروري للشكل ، بل كان علي الدوعاجي من الادباء العرب القلائل الذين يؤمنون في زمنه بالتشبع « بروح البحث » في الميدان الجمالي والمجال المضموني . وفي هذا المعنى يقول :

« ... اننا بطول الوقت سئمنا (الرسائل الملقاة من الباخرة على الامواج) و (الهروب بعد منتصف الليل الى الجيزة في الرولس رويس التي تقطع مائتي كيلومتر في الساعة) و (ابن العمدة الذي دعا البرنسيس المجرية الى شراب الشاي على مائدته فتبتسم واصابع يدها تعبث بسيقارة تركية) وهذه (الاكليشيات) كما يقولون التي نجدها في قصص العالمين والتي لو ابدلنا اسماءها الشرقية باسماء غربية لانطبقت

---

(1) « التجديد » السنة الثانية العدد الاول نوفمبر 1962 .
(2) المقال المذكور .

وبغداد الا ما يصفه الكاتب الاوروبي لوزار هذه المدن (1) ٠٠٠»

الا ترى ان علي الدوعاجي قد عبر في هذه الفقرة الوجيزة عن المفهوم الذى نبحث عنه في أدبنا الحديث ألا وهو الاصالة ؟

نعم الاصالة ! تلك هي القاعدة الاساسية التى تتركز عليها قصصه وفنه الذى ينم على سعة اطلاعه على القصة الغربية والقصة الشرقية •

لقد قال علي الدوعاجي للدكتور محمد فريد غازى : (2)

« ان الكاتب الغربي الذى اثر فى تأثيرا قويا هو « جاك لندن » مما جعله يختار عنوان مسرحيته « راعى النجوم » المنشورة في العدد الخامس من مجلة « المباحث » من عنوان رواية هذا المؤلف الامريكى » •

ولكننا مع الاسف لا نعرف ما هى الروايات الغربية الشهيرة التى اطلع عليها علي الدوعاجي فى عصره •

* * *

كان علي الدوعاجي يغرف من الواقع التونسى الشعبى الغرف الواسع الكبير • كان يبنى به فنه القصصى • فلقد اولى اهتمامه بالطبقة الشعبية المعذبة فى طلب الخبز ، واعتنى بها بالغ العناية • واغلب الظن انه كان يعطف عليها ويرق لحالها كثيرا •

ومن يطالع المجموعة القصصية فى هذا الكتاب يلاحظ بدون شك « الحلاق » و « المؤدب » و « العمة » و « الاديب البوهيمى

---

(1) مقاله المذكور

(2) الدكتور غازى مقاله المذكور .

السكير » و « الملاك » و « القربلجي » و « خدام الحزام » و « المجرم » و « الصانعة » الذين كان على الدوعاجي يعاشرهم صباح مساء في « باب سويقة » و « نهج الكبدة » و «الحلفاوين» و « ربض باب الجزيرة » • هؤلاء هم الاشخاص الشعبيون الذين كانوا يمثلون في الثلاثينيات والاربعينيات من هذا القرن الشعب التونسي الذى قاسى الاستغلال البورجوازى والاستثمار الاستعمارى ، فدخل في اعماقهم ، وسبر ضمائرهم ، وعبر عن اتواقهم ورغائبهم بالسخرية اللاذعة والتهكم المتشائم •

ولشد ما أعجبتني « سهرت منه الليالى » التي اختارها « نادى القصة » لتكون عنوان المجموعة : هذه القصة التي ينفذ من خلالها الدوعاجي ليصور لنا قلب امراة تكتم حبها لزوجها رغم ما تلاقيه من معاملة سيئة من قبله !•••

وكذلك « الركن النير » حيث يسمو الدوعاجي من الاحاسيس الخصوصية الى المشاعر الانسانية فـ « يشرح » قلب امرأة تتدفق في شرايينها المحبة كان يظن به الظنون !•••
وكذلك « أمن تذكر جيران بذى سلم » اين التقط فناننا بعدسته مشاعر امرأة اختلست دراهم معدودات لتمسح دموع صبي جائع شقي !•••

عالم الدوعاجي زاخر بالمشاعر والقيم • دنياه مكتظة باحاسيس الانسان المدمر المقهور الذى يرجو بصيصا من النور من شموع « العم باخير » ! كونه مزدحم ايضا بالصور الكاريكاتورية التي تتهكم على بورجوازيي « نزهة رائقة » كما كان يتهكم موليار ، فيضحك من النظام الفاسد القائم في

زمنه ، ويضحك من نفسه ايضا ، لانه عاش بائرا مغبونا مغلوبا طول حياته (I) •

ولقد صدق فيه قوله :

عـاش يتمنـى فى عنبـه   مـات جابـولـو عنقـود
ما يسعـد فنـان الغلبـه   الا مـن تحـت اللحـود

عز الدين المدني

كنز الفقراء (*)

انصتوا الى الشاعر :

كان فيما مضى ولا أدرى فى أى أرض زوجان من أفقر الناس لا يملكان شيئا ، ولا شيئا من الشىء . لم يكن معهمـا خبـز ليوضع فى السـلة (القفة) ، ولا قفة لوضع الخبـز ، ولم يكن لهما بيت يضعان فيه قفتهما ، ولا لهما أرض يبنيان فيها بيتا. كانابلا أرض ولا بيت ولا قفة ولا خبز .

إنهما تعسان ...
كانـا يشعـران بفقـد البيت ، أكثر من فقد الخبـز ، إذ يستجديان المحسنين فواضل الخبز ، أما البيت ....

كانا يودان لو قضيا العمر صائمين فى مقـابل بيت يمكن لهما فيه أن يوقدا نـارا ، يوقـدانها من أغصـان الأشجـار ، يصطليان ويتحدثان على وميض لهيبها .

فى الحقيقة ، إن المهم فى هذه الدنيا ، الألزم من الغذاء هـو

(*) قصة شعرية لشاعر ايطاليا الشهير غابريال دانينزيو .

ـكية بيت يأوى ، إذ بدون هذه الأربعة حيطان يصبح الانسان والحيوان سواء ...

* * *

في ليلة حزينة ، ليلة عيد الميلاد . ليلة حزينة في وجهيهما بالأخص ، أحسا فيها بتعاسة أكثر من ذي قبل .

ففي تلك الليلة ، كل الآدميين يوقدون نارا ، يصطلون على لظاها . وفي تلك الليلة الظلماء ، وفي الطريق العام ، كانا يرتعشان من شدة القر . واصطدمت أقدامهما بقط ، واحتج القط على معاملتهما له بعواء .

كان هذا القط بئيسا أكثر بؤسا منهما . لا يملك إلا جلدا يلم عظامه وقليلا من الشعر فوق هذا الجلد .... ولو كانت فروته خصبة لكان أحسن حالا مما هو الآن ولما التصق جلده بعظامه ولو لم يلتصق جلده بعظامه لأمكنه أن يصيد الفئران ، ولما بقي هزيلا كما هو الآن .

ولكنه لا يملك فروة ، ولا يملك جلدا أو عظاما . لهذا كان بئيسا ، كثير البؤس .

* * *

كل الفقراء والبؤساء أسخياء ، وهم يتعاونون فيما بينهم ...

... أمسكا القط ، لا ليأكلاه ! بل ليعطياه قليلا من خبز ، كانت استجدته الزوجة . ولما أكل القط ذلك الخبز قصدا الى كوخ متروك ....



لم يجدا فى ذلك الكوخ سوى ثقب تنبثق منها أشعة البدر ، عندما يسمح السحاب بذلك ...

غابت أشعة البدر ، وغاب القط معها ، وبقيا هما جالسين فى تلك الظلمة الحالكة ، فى هذا الكوخ الحالك ، والذى يزيده حلوكة فقد النار .
قـال :

لو أمكن لنا إيقاد نار فى هذا البرد فنصطلى ، ونتسامر على ضوئها .

لكن ــ واسفاه ــ لا نار فى الكــوخ ، لأنهمـا تعســان كل التعاسة .

وأخيرا تفطنا إلى جمرتين تلمعان فى طرف الكوخ ، جمرتان ذهبيتا اللون ... ففركا أيديهما سرورا ؛ وكان الرجل يقول لزوجته :

ــ هل تحسين حلاوة الدفء التى أحس بها ؟

..يقول ذلك ، وهى تبسط يديها فوق النار ...

ــ انفخ أنت قليلا .

فقال الزوج :

ــ كلا ، تدوم الجمرات بلا نفخ أكثر .

وجعلا يتحدثان عن الماضى ، بلهجة ليس فيهـا أى حــزن ، لأنهما شعرا بسعــادة ، وهمــا يتدفــآن على أنفـاس هــاتين الجمرتين .

وهكذا الفقراء يكفيهم القليل يسعدون به .
وأتما ليلتهما بين الحديث والتــدفئة ، والجمرتــان دائمتـا الوميض فى تلك الزاوية المظلمة من الكوخ .

وعند انبثاق الفجر ، وجدا نفسيهما أمـام عيني ذلك القط الذى اطعماه من خبزهما البارحة ٠

باتا فى دفء من بريق عينى القط ٠٠٠

وقال القط : كنز الفقراء وهم !٠٠

جـــاري

كانت الشقة المجاورة لشقتي شاغرة . وكان يسكنها جماعة من الطلبة . وكنت أحمد الله جهرا وسرا يـوم أن سمعتهـم يعتزمون ترك البيت لصاحبه . وكم كان فرحي شديدا عندما رايت عربة النقل مكتظة بالسجاجيد والمصابيح والقفـاف على اختلاف الوانـها وأحجامها .

تخلصنا ، والحمد لله من مجاورة الطلبة . وسكنت الحـارة من صراخهم وخصامهم ومراجعاتهم ، وهي متشابهة الضجـة حتى أنك لا تفرق بينها مهما أوتيت من دقة السماع .

كنت أترقب في شوق شديد مقدم أجواري (الجـدد) وقد أعلمني صـاحب البيت أنهـا (عـائلة) لا تثيـر صراخـا ولا تراجع دروسا ، ولا تربى كلابا .

لم يطل انتظاري حتى أقبـل السـاعي يحمـل مكتوبـا من صديقي (س) يعلمني بأنه في حالة نزع ولم يبين في مكتوبه إن كان في حالة نزع أو نزاع ، وبانه ينتظـرني على أحـر من الجمـر ...

لم يسعني إلا أن أعيد مطالعة المكتوب • ثم أن أعزم على زيارة هذا الصديق (المنازع) ، وصديقي هذا السيد (س يقيم في مدينة بنزرت) والسفر إليها سهل بعد أن اخترت السيارة • ولم تبق إلا صعوبة إيجاد أجرة السيارة •

تركت البيت ، وترقب الأجوار ، ورؤية الحريم ينزل من العربة تحت مراقبة رب العائلة الغيور •

تركت كل هذا ، وذهبت أفتش عن رجل طيب القلب ، كريم اليد يرضى بأن يقرضني أربعين فرنكا ـ وهو مبلغ تافه كما ترون ـ • وفعلا ، وجدت ضالتي في شخص شيخ إسرائيلي يغيث الملهوف بفائض قدره خمسون في المائة •

كم كانت دهشتي عظيمة عندما وجدت صديقي (س) يتداوى من نزعه أو على الأصح من زكامه في « بار » من بارات مدينة بنزرت •

أعلمت الصديق بما ضحيت في سبيل نزعه الكاذب من مال ، وآمال ، فضحك من سخافتي • وصفق مناديا الخادم الذي بقي في خدمتنا ليلة ويومين •

وهكذا ، لم يمكنني القضاء أعني : القضاء والقدر من رؤية العائلة تنزل من العربة تحت مراقبة رب العائلة الغيور •

• • •

قال صاحب البيت ، وهو يرفع حاجبيه الى عمته البيضاء :

ـ يجب أن تدفع أو أن تترك البيت !

قلت :

ـ نعم سأدفع إن شاء الله •

قــال :

ـ إن شاء ربى ٠٠ إن شاء ربى ٠٠ إنك لم تدفــع القسط الأول من ثلاثة أشهر بدعوى أن مجاورة الطلبــة تقلــق راحة جنابك ٠ والآن ما يقلقك ؟٠

قلت :

ـ ما لا أود قوله له !٠٠ دفع الفلوس !٠

قــال :

ـ طبعا ٠٠٠ يقلقك هذا ٠٠٠ ثم إنــك لا تنــوى امتــلاك البيت بطريقة عدم دفع الأجرة ؟٠

قلت :

ـ لا أود امتلاك مثل هذا البيت المتهدم ٠ ولى والحمــد لله من القصور في جنة الخلد ما يكفى ٠

قــال :

ـ والآن ؟٠

قلت :

ـ اسمع يا عم ٠٠٠ الآن وقد خلصتنا من ضجة الطلبة ، وجاورتنا هذه المرأة اللطيفة ، سادفع ما يجب دفعه فارجــوك الاحتفاظ بوصلك هذا الذى سأدفع قيمته بعد مــرور ثــلاثة أشهر على الأكثر ٠

فاتنى أن اذكر أن جارتى التى سكنت الشقة فى يوم غيابى عن العاصمة كانت إمرأة سويسرية ، على حد قــول صــاحب البيت ، ٠ وهى فى الثلاثين من عمرها ، شقراء الشعر ٠ وهى لم تنزل من العربة تحت مراقبة زوج غيــور ، لأنهــا مطلقــة ومغرمة ، والهة باشعة الشمــس الافريقية ٠

• • •

يوم 12 ماي :

علمت امس من جارتي أنها ليست بسويسرية الأصل . وكل ما في الأمر أنها كانت مرافقة لرجل من أغنياء سويسرا عودها على حياة البذخ والانزلاق على الثلج والنطق بلهجة ألمانية . أما هي ، فهي برتغالية مائة في المائة . وهي معجبة بسمرة بشرتي وبسواد شعري الأجعد كل الاعجاب ، وهي تود اقتناء « منتو » من الفرو ثمنه 75 فرنكا .

اقتنيت لها هذا المنتو البديع صباح هذا اليوم بعد أن خفض صاحب الدكان اثنين في المائة من الثمن . وهذا أعده صفقة رابحة ــ حسبما قالته السيدة ــ عندما استلمت المنتو ... ما أحلى نطق كلمة « مرسى » باللهجة البرتغالية (اعنى الألمانية) . أود أن أشترى لجارتي (منتو) آخر بشرط أن تعيد لي قولها « مرسى » بهذه الرقة .

يوم 15 ماي :

دعوت السيدة للغداء في بيتي ، فقبلت في بشاشتها السويسرية . وكانت معجبة بصحن « العصبان » كل الاعجاب. وهذا ما أثار غيرتي قليلا وأعجبت أيضا (بالكنويطة) بعد ان اطنبت في تقدير قيمتها التاريخية . وقلت : إنها صنعت من مائة وعشرين سنة لأحد ملوك القيروان !

واحمد الله على جهل والدتي اللغة الافرنسوية وإلا لما قبلت ان ازيد في عمرها بمثل هذا البسط .

* * *



* * *

صاحب البيت :

ـ الفلوس !!! الفلوس •

أنـا :

ـ !•••!! الفلوس !!! •

صاحب البيت :

ـ ••• تدفع أو أحجز !

أنـا .

ـ وعلى أى شيء يوقع حجزك ؟•

صاحب البيت :

ـ على الأثاث طبعا •

أنـا :

ـ تفضل •

صاحب البيت :

ـ ماذا تعنى ؟ نعم سأحجز •

أنـا :

ـ قلت لك تفضــل ، ت•••ف•••ضـ•••ل ، واحجــز على ما بقى • احجز الكانون والسخان ••• ها ها ها !•••

صاحب البيت :

ـ هذه الرقاعة التى يتحدث عنها الناس ! هــذه الرقــاعة وإلا فلا رقاعة فى الدنيا ! القسط الأول لا يدفــع بدعــوى أن السيد تقلقه مجاورة الطلبة • والقسط الثــانى ، لأن جنبــابه متغيب عن العاصمة والقسط الثالث •• سأحاكمك وستتــرك البيت يحول الله صاغرا بعد أن أحجز • قلت سأحاكمك ••• وسأفعل !•

أنـا :

ـ لا · لا تفعل ·

صاحب البيت :

ـ ولم لا أفعل ؟ سترى !·

أنـا :

ـ من فائدتك أن لا تفعل لو قاضيتنى لطالبتك بتعويض ·

صاحب البيت :

ـ ماذا ؟ تعويض ؟ وهل سقط عليك جدار ؟·

أنـا :

ـ سقطت على أفعى ! أفهمت ؟ أفعى سويسرية أو برتغالية امتصت كل ما أملك وأنت السبب فى هذا !·

صاحب البيت : (فازعا) ···

أنـا :

ـ (وقد شجعني فزعه) نعم أنت · ألم تقل إنهـا ارملـة مركيز هولاندى ؟ ألم تقل يوم ان سألتك عنها : إنها ابنة ملك المسامير ووارثته الوحيدة ؟ الم تقل كل هذا والحقيقة هى ما تبين أخيرا من أنها نصف مجنونة لا تملك إلا وجها صفيقا ، وشنطة التواليت · هذه ابنة ملك المسامير ! لم تترك لى من البيت إلا مسمارا واحدا من وضع معامل والـدها المحتـرم · وهذا المسمار يحمل غربالا « سقاط » · ارجـوك الاحتفـاظ بوصلك هذا الذى سادفع قيمته بعد مرور ثلاثة أشهر أخرى · هذا إذا لم تسكن الشقة المجاورة جارة لطيفة من هذا العيار ·

في شاطئ حمام الانف

كانت عربة القطار مكتظة بجسم امرأة من الـوزن الثقيـل والثقيل جدا . ومما زادها ثقلا أنها كانت ترتدي ثوبا أحمر ، وتلبس شفاها وأظافر من نفس اللون . وكما أنها ملأت العربة بلحمها فقد ملأتها أيضا بحركاتها ، وبابنها . ولا شك في أن ابنها سمين كبير الرأس ، ويلبس اللون الأحمر . واظن أن لبس الاحمر وراثي مثل السمنة في هذه العائلة . وكان الصبي يصرخ صراخا كانه بكاء ، ولكنه ليس ببكـاء . وكل من في القطار تضايق من هذا الصراخ . وود لو أرضى هذا الصبي بما طلب ، فتكاثرت عليه الأسئلة : هذا يسأله عما يـريد . وذاك يرقصه على ركبتيه . وذاك يـربت على أنفـه ، والصبي يزداد غضبا ويزداد صراخا ، وكانه يصرخ للصراخ نفسه . لا يريد بذلك سندويشا ولا زمامير . الحق لقد تحملت هـذا الشقي اربعة ، ادراج ، ثم شعرت انى أسرفت كثيرا في تحمل ما لا يطاق فهاجرت الى عربة أخرى .

لم أر احدا في بادىء الامر ، فدخلت مطمئنا آمنـا . حتى اجتزت ، البوكس ، الثاني ، وهنا لقيت شابا وشابة او مـا نسميه في لغتنا الكلاسيكية (بروميو وجولييت) روميو شاب له متر وتسعون سنتيمترا ، كثيـر الشحـوب ، طويل الأنف

كأنه شاعر . وجولييت صقلية ، ربعة القامة ، تلبس اللون الأصفر الفاقع ـ كما تلبس الملوك فرو الهرمين ـ وكانا يتكلمان همسا ، ويستعيضان عن الفوغاء بكثرة حركات أيديهما ، فروميو يرفع يديه الى أعلى ثم يمد يده اليسرى الى الأمام . كأنه يقول : « احبك واقتل أباك بخنجر إذا ... » وجولييت تدير أصابعها حول بعضها كأنها تجيبه : « ساطرز لك منديلا تفتخر به أمام نائب القنصل » .

هذا لا يطاق ! ؟ أجالس عاشقين ولا أرى ولا اسمع منهما إلا رموزا ... لم أركب القطار لهذا ! نعم ركبته ليحملني الى حمام الأنف . والمهم أن اصل الى حمام الأنف فلأترك العربات كلها ، وأتمم طريقي جالسا على سلم العربة ، من الجهة اليمنى ، أتفرج على أعمدة التلغراف وأحصيها اذا تمكنت من ذلك .

* * *

من المحطة الى الشاطىء أمشي مسرعا للتفرج على المستحمين . والعجيب انه ليس بحمام (الأنف) بل هو حمام بقية الجسم أيضا من افخاذ ونهود و ، و ، و ...

كان الشاطىء ملآنا بباعة الكاكاوية والليموناضة ، والمستحمين ، والملاحف البيضاء البديعة .

باعة الليموناضة والكاكاوية معروفون من الجميع بوساختهم ورقاعتهم . والمستحمون رجالا ونساء ، خالعون ملابسهم وحياءهم ، وهم مرة يحسون الحر فيرتمون في الماء . واذا أحسوا البرد في الماء انبطحوا عارضين اجسامهم لأشعة الشمس ؛ فهم بين البرد والسخانة طول يومهم .

والعادة ان يستحم الانسان يوما كاملا ليعتبر مستحما داخليا « انتيرن » . أما من ينزع ليلبس بعد نصف ساعة على الأكثر فهو مستحم أو مستحم خارجيا « إيكسترن » .



والملاحف البيضاء شيء آخر . الملاحف هذه مخلوقات اتبعن سنة الجدات فأسدلن على أجسامهن الناعمة ملاحفهن . واتبعن سنة الوقت فخرجن الى الشاطيء ينتقدن ترجيل شعر عمرو وكي بنطلون زيد . وهذه تنسى أنها ملتحفة فتريك وجها وسيما . ثم تتذكر فتختفي داخل ملحفتها بعد أن تبعث الكهرباء في أجسام أربعة من شبان الشاطيء كانوا يراقبونها من نصف ساعة .

كنت أسير في هذه الطريق ، وأنا أتخيل كل هذه الأجسام في ملابسها الشرقية الغرناطية ذات السراويل الواسعة . وهن يرقصن رقصة البطن اللطيفة في إحدى قاعات الحمراء . واذا بعصفور يتمرن في مناورة جوية ؛ فرمى على شاشيتي قذيفة لم أفطن لها ، لولا ضحك المارة وإشاراتهم الى رأسي الكريم ، ففهمت بشعوري أن في رأسي شيئا اثار فضول كل هؤلاء الأفاضل ، ونزعت الشاشية فوجدتها مزدانة بقذيفة العصفور اللعين . من من الشعراء قال عن العصفور إنه ملاك ؟ لو وجدته لأريته إبليس ... لم استحسن البقاء بحمام الأنف او « البسين » بعد أن عرف اني احمل على رأسي « نيشانا » لمناورات العصافير فكررت راجعا . ومن فضل الله وجدت القطار خاليا إلا من رجل عجوز يعرف معرفة جيدة أسماء اصحاب الفيلات المزروعة في طريق القطار من حمام الأنف الى تونس .

المصباح المظلم

- 1 -

كان ثلة من الصبيان يتمرنون على قـذف الحجـارة بخيط المطاط ، اصاب اشطرهم الهدف وهو « أنبـوبـة » المصبـاح الكهربائي . ثم تفرق شملهم بأذان المغرب الذى جمـع التقـاة للصلاة فى مسجد الحومة .

اضيئت مصابيح الشارع إلا هذا المصباح المكسور ، وبقى كاشجار الخريف . وكان رذاذ المطر يزيد هذه النقطة المظلمة من الشـارع كآبة .

كان بجانب هذا المصباح دكان حلاق عليه « يافطة » كتب عليها باللون الأحمر « الحلاقة العصرية » ورسم بجانب الكتابة رمز الحلاقة « الموسى » ولقد فهمت بعد علامة اللـون الأحمـر صناعة الحلاقة .

(*) هذا العنوان اخذناه من الجزء الثاني من هذه القصـة التى لم نعثـر على بقيتها (نادى القصة) .

خرج الحلاق من حانوته فرأى المصباح مظلما ، ورأى يافطته لا تقرأ في ظلام هذه النقطة من الشارع . فخلعها من موضعها وأدخلها داخل حانوته . ثم التفت الى المرآة ليصلح من شاربه الأسود القائم الى فوق بالشكل الذى تسميه الماجنات من نساء القرن الفائت بمعلاق القلوب . هنا سمع الحلاق وقع خطى فى الشارع الممطر المظلم . وتطلع ككل فضولى لا يريد أن يمر أمام دكانه إنسان بدون أن يعرف من هو والى أين يقصد . لكن ظلمة الشارع حالت دون استطلاع الفضولى . فوقف فى عتبة المحل .

ودفعه الاستطلاع ، فتخطى خطوات نحو المصباح ، فرأى امرأة ملتحفة بيضاء ، واقفة ، تتظلل تحت ستارة دكان بجانب المصباح .

كان رذاذ المطر قد فعل فى شعر الحلاق ما لا تفعله « الفركسيون » وأحس صاحبنا بهذا . فبقى حائرا بين الدخول لترجيل شعره ، وهو يغار عليه ، ويعرضه كأنموذج لصناعته ، وبين معرفة هذه المستندة الى المصباح ؟ ومن يدرى ؟..

فربما تعرف إليها وأدخلها دكانه الأنيق الحاوى من حقق « الفبرة » وقوارير العطر ما يستهوى قلب أشرف بنات حواء . وليس كالطيب فى استهواء قلوب النساء . من يدرى ؟..

أخيرا ، غلبت عليه طباع (ال....) فدخل دكانه . واستعاد وقفته « الكليشى » أمام المرآة ، وأخذ يسب غلامه الذى وضع المشط فى غير محله .

« هذا الكلب ابن الكلب ، أقول له وأعيد : ضع المشط على اليمين ، واللعين لا يضعه إلا على الشمال ، ولا يفعل إلا خلاف ما أوصيه به . لكن طلته « شلاوى » يستعمل اليسرى مكان

وكأن نكتته هذه أعجبته . فأخذ يعيدها بصوت عال لعل لأنثى الواقفة بجوار دكانه تسمعه . ولا بد أنها سمعته ما لم تكن صماء ، ثم أعقب ذلك بضحكة عالية ، وهو ينظر للمرآة ويمشط شعره المبلل . وأطال النظر في صورته المنعكسة على المرآة لأنه وجد للمرة المليون وجهه وسيما جذابا ، خصوصا شاربيه السوداوين القائمين الى فوق .

فلماذا لا يخرج لهذه الواقفة فيجرب جاذبيته فيها ؟

وفعلا خرج صاحبنا للشارع ، وأجال نظره الدقيق الذى لا « يخطىء الشعرة » لكن الأنثى ذهبت وفلتت الصيدة فاغتاظ وأخذ يسب المطر والشعر والنساء ...

— 2 —

خرج المصلون من صلاة العشاء ، واضعين برانيسهم على رؤوسهم ، يسرعون الخطى الى دورهم . ومرورهم أمام الحلاق ذكره وعده لصديقه اسماعيل في قهوة « الحاج على » إثر صلاة العشاء ؛ فلبس جبته ، وسوى شاشيته على راسه ، وأطفأ المصباح المعلق في سقف الدكان . ثم أخذ يفتش في كل جيوبه عن المفتاح حتى وجده أخيرا في حقة القصدير حيث اعتاد وضعه . فأغلق الباب . وفتح سبحابته . واستعد للذهاب . والتفت فجأة الى ناحية المصباح المظلم ، فرأى المرأة واقفة .

قال في نفسه : « هي نفسها التي كانت واقفة ؟ لا . تلك ذهبت بدليل أني لم أجدها عندما خرجت للمرة الثانية .... لكن من هذه يا ترى ؟ وما سبب وقوفها بجانب المصباح كالاخرى ؟... سأعلم كل هذا منها »

قصدها وابتدأها :

— مساء الخير يا لله !

ـ مساء الخير .

ـ تحبش نغطيك بسحابتي ، اظنى الشتاء حاصرتك ، نوصلك وين تقصد ؟

ـ المقصود ربى !

ـ معلوم ! لا مقصود غيره . لكن وقوفك تحت الفنار ... والشتاء قالت شد يدك ، والدنيا ظلام شيء يخوف !!!

ـ الخوف من الله !

ـ ما فيهش كلام ! الخوف من الله ومن اللى ما يخافش من الله والدنيا مليانه بيهم .

ـ هاني قاعدة نشوف .

ـ فاش ؟

ـ في اللى الدنيا مليانه بيهم . إبدا بيك أنت لا باس تكلم في ؟ ومنين تعرفني ؟

ـ المعرفه ... لا محاله ما نعرفكش لكن نعملوها معرفه جديده .

ـ برا على روحك وخي يهديك ، وخليني لاهيه في همي .

ـ تحبش نعاونك عليه ؟

ـ اشكون هو ؟

ـ لا . همك اللى لاهية فيه (وشجعه سكوتها فأتم) راني ما عنديش حتى نيه كان فعل الخير . اسمع كلامي نغطيك معايا ...

ـ مليح !.. لكن بشرط ما تلصقنيش وما تكلمني حتى كلمه .

قالت هذا ، وهي تهدد بالطف بنصر رآه في يد امرأة ؛ فأجاب الحلاق ، وهو ينظر الى يدها والى الماسة الثمينة التي

تلمع وسط الظلام .

ـ الله يبارك قبلت ... تفضل .

ـ 3 ـ

كان صاحبنا خبيرا بالعطور حسب صناعته . ولكن رائحة عطر هذه المرأة لم يعرفه . فجعل يسأل نفسه : « هل هو عطر « الفرفيل » أم « ليلة باريز » ؟ » وأخيرا سألها :

ـ بالله آش اسم ها الريحة اللى عندك ؟

ـ ماو اتفقنا ... الكلام لا ؟

ـ لكن انا صنعتى حجام ... حبيت نعرف اسم ها الريحة بـرك !

ـ من كل مشموم نواره !

ـ عظيم ... واشكون شراها لك ؟

ـ اشنوه ؟

ـ .... قتلك منين شريتها ؟

ـ هذا ما يهمكش واسكت وإلا خلينى نوللى على ثنيتى ؟

ـ سكت . الله يبارك كيما تجنيش تكلمك نسكت خير . والناس اللوله قالوا اذا الكلام فضـة السـكـوت . مـن كـل مشمـوم نـواره » اسم حلو آش عندى ما نقول ، والريحة طيبة شميتها من اللى كنت فى حانوتى . وغلبت الروايح اللى عندى الكل . وقت اللى كنت واقفه تحت الفنار .... ما افهمتش النوه اشنيه وقفتك . لا هانى سكت .

ـ إيه اسكت . وانت اسم الله العظيم تشد ما تسيب .

ـ صلى عانبى ؟ آش باش تقول .

ـ انا نقلك إسكت وانت تقللى آش بأش نقول ؟

ـ لا ··· على خاطر ريتك واقفه · ومن بعد عاودت حزرت ما لقيتكش ··· وين جيت مروح نلقاك وليت !

ـ هز يدك على كتفي !

ـ طيب !·· لكن نحب نعرف !

ـ أوووفه !

ـ وين ماشيه ؟

ـ لـواش ؟

ـ باش نعرف أما ثنيه نقصدوها ·

ـ السبخه ·

ـ سبخة ترنجه ؟

ـ لا سبخة باب الجزيره ·

ـ ايوه خلينا الثنيه ورانا لو كان عرفت رانا خذينا ···

ـ يزى يزى هيا نوليو ··· لو كان نشدتنى على هذا اللول رانا وصلنا ·

رجعا الى نهج الباشا ثانيا · وما كادا يسيران بضع خطوات حتى اشتد المطر ، فالتصقت به المرأة وأحس بحرارتها · وجعلا يسيـران ، وكـأنهمـا شخص واحـد حتى مـرا بالمصبـاح الكهربائى ··· وبدكانه فسألته ، وهى تختنق بكلماتها :

ـ عندك دار ؟

ـ اما لا نبات تحت الحيط كى القطاطس ·

ـ تقد تنجم دخلنى نبات فى دارك لكن أنت متزوج ؟

ـ الله يلطف ما زلت عازب رأسى رأس الوالدة ·

ـ نمشى معاك لدارك بشرط ما يرانى حتى حـد ! واللى نقلك تعمل فهمت ؟

قالت هذا ، ولو أمكن أن يرى وجهها لرأى دمعة كاللؤلـؤة ترقرقت من عين المسكينة · لكنه أجابها ضاحكا :



ـ على الرحب والسعة ··· هذى نعمه غير مترقبة (وهى عنده أجمل عبارات المجاملة) وارعشتها ·

كانت متكئة على جانب الكنبه · وكان جالسا على كـرسى قبالتها · فسالته عن الساعة · وبعد أن أعلمها أنها الثـانية بعد منتصف الليل ، أخذت سيقـارة وأشعلتهـا · ثم رفعت منظرها الى صاحبها الجديد وقالت :

ـ تعرف رانى ما نيش كيف ما تسخايلنى ···

ـ العفو ـ وأنا آش سمعت من فمى ؟

ـ موش لازم نسمع من فمك ··· أما حبيت نقلك اللى أنا جيت معاك ما نيش عاشقه فى عينيك ، ولا فى مشطة شعرك ، ولكن انا عملت عملتى باش نرد الفازيته وناخذ بثارى ·

هنا صاح الحلاق مصعوقا :

ـ بالثار ممن ··· منى ···!؟

راعي النجوم

كان (هو) رجلا عاريا ، وكانت (هي) امرأة عارية إلا من ظلام النفق • (هو) ينظر فلا يرى شيئا • و (هي) تترقب (متى تراه) على الجمر • وكانما ثقل عليها هذا الظلام ، وهذا الصمت ، فاخذت تحادثه :

هي ـ قل •• الست انت •• راعي النجوم ؟

هو ـ أنا هو •

هي ـ ما اتعبك واثقل كاهلك حتى جعلك لا تراها ؟

هو ـ أتعبتني الراحة •

هي ـ وما انت صانع الآن ؟

هو ـ (لنفسه) ما أكثر اسئلة المرأة !! (لها) إني لا أجد الوقت لئلا اصنع شيئا •

هي ـ أتعرف « الأبجدية » ؟

هو ـ ذاك مما لا أزال أذكره •

هي ـ اكتب •••

هو ـ الا ترين الظلام يشملنا ؟

هي ـ أنا •؟• أنا لا أرى الظلام في الظلام !!• ولكن نحن •

هو ـ أتودين أن أضحك ؟

هي ـ أود ذلك ككل امرأة ··

هو ـ إذن ، أعيريني إبرة ·· آخزك بها ·

هي ـ (تضحك) ألا تستطيع ذلك بدونها ·

هو ـ أستطيعه لو كنت على خبث الآخرين ·

هي ـ (تضحك) أرى أنك لا تستطيع شيئا مطلقا مثل الآخرين وخيبتك هذه دفعتك الى التطلع ··

هو ـ (مقاطعا لها) لا تذكرى النجوم من فضلك ··· قبل أن تطهرى فمك من الضحك ·

هي ـ هذا حمق · إن الضحك أطهر من الطهارة نفسها ·
هو ـ (لنفسه) : يوجد ضحك ·· وضحك ·· (لها) أتضحكين منى أو على ؟

هي ـ وهل ثمة فرق ؟

هو ـ أو أنت مثلهم لا تعنين بالفروق ؟

هي ـ أنا لا أعتنى إلا بك (النور ينير الظلمة) وها أنا أراك ·

هو ـ هذا برق ·· ما هذا بنور ·

هي ـ هذا الفجر ·

هو ـ هذا الفجر ·· ما أجمله !·· لم أرك قبل الساعة ·

هي ـ (يائسة) : هو ينظر الفجر ولا يراني أنا !!؟ نعم هو ذا الفجر كما وصفته لى أمى ·

هو ـ أمك ؟ وهل رأت أمك فجرا ؟

هي ـ نعم فى ليلة وكانت صائمة ··

هو ـ تصوم ليلا ؟

هى ـ ليس فى استطاعة الفقير أن يختار أوقات عبادته ·

هو ـ وهل كانت أمك فقيرة ؟

هى ـ (فى خيلاء) : نحن نتوارث الفقر فى عائلتنا منذ الأجيال الأولى ·

هو ـ عجيب ·· ولماذا ؟

هى ـ ما هذا الاستطلاع ؟ تود أن تعلم كل شىء ؟

هو ـ كل شىء ! ما أفخم هذا التعبير ··· الواقع أنى أجهل كل شىء سوى : لم تتوارثون الفقر فى عائلتكم ؟

هى ـ ليس لنا مكان يحفظ ثروتنا ·

هو ـ أعطنيها ·

هى ـ ستقتلنى ضحكا (تضحك) أأعطيك ما لا أملك ؟ وأنت أليست لك ثروة ؟

هو ـ هيه ! كان لى كنز كله أحجار ثمينة ·

هى ـ قل مقطعا ، كالموجود خلف هذا الجبل ·

هو ـ قلت لك أحجار ثمينة ·

هى ـ هنا ! كل الأحجار ثمينة ما دامت تقينا الحر والقر ·

هو ـ كانت أحجار كنزى أثمن من تلك ····

هى ـ ما تبنى بها ؟

هو ـ لا تصلح للبناء ·

هى ـ ولماذا ؟

هو ـ لأنها ثمينة ·

هى ـ وما جعلها ثمينة ما دامت لا تصلح للناس ؟

هو ـ لأنها نادرة تبرق كما كانت تبرق عيناك عندما يتنى ·

هى ـ هذا مما لا أفهمه · وأين كنزك الذى لا يصلح لشىء؟

هو ـ اودعته الأرض ولكنى غفلت عن وضع علامة لـه ، وضاع تفتيشى سدى ··

هى ـ اتود أن افتش انا لك عنه ؟

هو ـ الا تسكتين ؟

هى ـ أو تسكت المرأة ؟

هو ـ ما اجمل هذا النور ·· ما أجمل لون هذا النور ··

هى ـ النور له لون !! وهو فرح به ، لا يدرى المسكين أنه على هذا النور سيكتشف الغرباء مكان الكنز ، وسيحتفظون به خصوصا اذا كانت لهم امكنة يضعونه فيها ·

هو ـ ليكن ·

هى ـ ما هذا الشذوذ ؟

هو ـ الحقيقة انى كذبتك خبر الكنز ·

هى ـ ولم كذبتنى ؟

هو ـ لأعجبك ·

هى ـ تعجبنى ·· وانا أعلم انه ضائع ؟

هو ـ الناس تعجب حتى بالثـروة الضـائعة وباصحابها الذين اضاعوها ·

هى ـ ولم أطلعتنى على الحقيقة ؟

هو ـ لانى ذو ضمير ·

هى ـ وأين هو هذا الضمير ؟

هو ـ فى ···ـ ثم لانى لا احسن الكذب · أود ان اعجبك كما أعجبنى أنا هذا النور ·

هى ـ لكنك لست بنور · ثم أنت لا تعجبنى إلا إذا تركت التطلع لرؤية النور ، ورعاية النجوم · أنا أريدك وقحا قليل الحياء ، صفيقا تتطلع فى جسدى بنظراتك الملتهبة ، حتى تحمر وجنتاى غيظا منك ، وخجلا من نفسى · أرعنى أنا ·

هو ـ لا ٠ و ٠٠ وإذا ٠٠ أضعتك ساغتاظ أنا بدوري ٠

هي ـ ولو ٠٠ ليس لي اهل فلا تخش مطالبة ٠

هو ـ تطالبني بك نفسي ٠

هي ـ أجحدها ٠

هو ـ إلا إذا وعدتني بأن لا تضيعيني ٠

هي ـ أنا لا أستطيع أن لا أضيع ٠٠٠ (يعودان الى الصمت) (بعد لحظة) مالك صامت ؟ حدثني املأ نفسي بفراغ ثرثرتك ٠٠٠

هو ـ (لنفسه) هي ككل من عرفتهن ٠٠ (لها) وما الغاية ؟٠

هي ـ وهل ثمة غاية ؟ إن الغاية عندنا هي الواسطة ٠

هو ـ الغاية هي الواسطة ؟ هل نعمل شيئا لا لشيء ؟

هي ـ للعمل ذاته ٠ كان كل من الجنسين يحب الآخر لبقاء الجنسين ٠ ألا ترى الآن أننا نتحابب للحب ؟ كمن يأكل للـذة المضغ والبلع ؟ هكذا الانسان الراقي يعمل لنشوة العمل ٠

هو ـ هذا واقع كان يجب أن لا يقع ٠

هي ـ نحن لا نبحث عما يجب ٠ وإنما نتبع سنن البشر ٠

هو ـ أنا لا أحب ذلك ٠

هي ـ أرأيت انك أنت الذي لا يود أن أعجب به وأكبره ٠

هو ـ ماتريدين أن أصنع لك ؟

هي ـ اسرق ٠ اسرق من أجلي شيئا ؟ اسرق لي سـوارا أزين به معصمي ورصعه بأحجارك الثمينة ٠

هو ـ لا ٠

هي ـ ولم ؟

هو ـ أولا لأني لا أملك من الأحجار إلا كذبي ٠ ثانيا لانك تنسين ٠



هي ـ انـا ...

هو ـ الم تذكرى أنك لا تملكين مكانا يحفظ لك اشياءك ؟

هي ـ ولو . اسرق لى ، وساحتفظ بسوارك ما استطعت.

هو ـ أنا لا أسرق .

هي ـ حتى لمشاركتي في جرم ؟ حتى لمشاركتي في اقتراف ذنب مشترك بيننا . أنت لا تحبنى .

هو ـ انا لا أود أن أسرق . وأخشى أن اصبح مدمنا على السرقة .

هي ـ ولو ...

هو ـ وبحكم الادمان اسرقك أنت بدورك .

هي ـ اسـرقنى ، أوه اسـرقنى الآن إن شئت . نحن لا نطلب أكثر من ذلك .

هو ـ !!!؟

هي ـ ألا تعلم ان وراء ذلك الشهرة ؟

هو ـ لا أود ذلك سرقة إنما .. ما ألطف جسمك ... ألا تعيريننى إياه ساعة ، أو أقل من ساعة ؟

هي ـ (في حدة أقل من ساعة) ، هوه . (تلطمه لطمة) خذ . يا وقح ! يا قليل الحياء ! ألا تخجل من أن تفاتح مثـلى بمثل هذا ؟ .

هو ـ إنى لم أقل شيئا اذا ... (يضـع يـده على مكان الصفعة) .

هي ـ أعيرك نفسي يـا وقـح ! يا وحش ! ، نحـن نهب أجسامنا هبة (لمن) يتملكها غصبا ورضى . ولا نعيرها ، هذه الخطيئة الكبرى ، هذا الذنب الذى لا يغتفر . نحن لا نسلـم أجسامنا إلا هبة ، أو تسليما لمغتصب ، ذلك مـا أمـرتنى به أمي ، أنا امرأة شريفة .

هو ـ وما الشرف ؟

هي ـ الشرف هو أن تعمل أعمالا شريفة ٠

هو ـ وما هي الأعمال الشريفة ؟

هي ـ الأعمال التي تواطأ الناس على تسميتها بذلك ٠٠٠ (بعد لحظة) أنت تعيش بماذا ؟

هو ـ بالقوت والماء مما يجرى تحت الأرض وينبت فوقها ٠

هي ـ وهل الأرض لك ؟

هو ـ الأرض ٠٠ للكل ٠

هي ـ لا ٠ الأرض لأصحاب الأوراق

هو ـ ما دخل الأوراق في الأرض ؟

هي ـ الأوراق ٠٠ هي التي تخول حاملها ملكية الأرض ٠

هو ـ الأوراق لا تؤكل ٠

هي ـ لكنها تعيننا على أكل الطيبات ٠

هو ـ من أين تأتيهم الأوراق ؟

هي ـ يسرقونها ٠٠٠ بعضهم من بعض ٠

هو ـ ولم يسرقونها ؟ لم لا يفتكونها علانية ؟

هي ـ يالك من وحش ! ألا تعلم أن المدني لا يغتصب ولا يفتك ! من يرضى بذلك ؟

هو ـ الجائع ٠

هي ـ قل : العاجز ، قل ٠٠٠ لأن كلمة جائع حذفت من قواميس المدنية ٠

هو ـ اأنا عاجز لأني آنف من ارتباك السرقة ؟

هي ـ أنت أقل من عاجز ٠ أنت وحشي : ألا تعلم أن في السرقة مجاملة ومجابرة للمسروق ؟ وفي الاغتصاب قهرا

للمغتصب وذلة للمغتصب ؟ وانت مخير بين عز السرقة ، وذل السؤال ، ووحشية الاغتصاب !

هو ـ مسكينة ٠٠!

هي ـ انا ؟

هو ـ لا ٠٠٠ أمك التي علمتك هذا ؟

هي ـ وانت ما علمتك النجوم ؟

هو ـ أسماءها ٠

هي ـ وهل تأتيك اذا ناديتها أو حتى تجيبك جوابا ؟

هو ـ اسميها للمعرفة لا غير ٠ .

هي ـ ما هي المعرفة ؟

هو ـ السمو ٠

هي ـ أليس هو الغرور والأنانية ؟

هو ـ لكن لولا الغرور لاحتقر الانسان نفسه ٠

هي ـ انت تحتقر الكذب على الناس ٠ ولكنك تكذب نفسك بنفسك ، ولا ترى في ذلك بأسا ٠

هو ـ لي لذة أخرى في المعرفة هي الحديث عنها مع الناس٠

هي ـ وهل تربح من هذا ؟ هل يعطونك شيئا مقابل حديثك عن معرفتك ؟

هو ـ انا لست بتاجر ٠ هذا ما لا أفعله مطلقا ؛ لأن المعرفة لا تنقص ٠

هي ـ بالعكس كل شيء يزداد إلا المعرفة ٠ هل زيد شيء فيها عما عمله الانسان الاول ٠ ألا ترى أنك تأنف من سرقة الناس وتكنك تسرق نفسك ؟

هو ـ ولو ٠٠ نفسي لي انا ٠

هى ـ هذا غلط آخر . نفسك لغيرك . لى أنا مثلا ما دمت بجانبك .

هو ـ حسن . ها أنا أصبحت لها الآن !

هى ـ هذا بديهى إذ أنك لا تملك من نفسك شيئا . أنت لا ترى نفسك حتى مجرد الرؤية . وأنا أراك فأنت لى واذا رأيتنى فأنا لك .

هو ـ لكنى أسمع نفسى .

هى ـ لا تكذب ، وأنت تدعى أنك لا تحب الكذب . أنت تسمع نفسك ؟

هو ـ (هازئا) حتى ولا صوت ضميرى ؟

هى ـ ضميرك يعيد ما سمعه ممن وضع فى نفسك هذا الضمير . هذا ما قاله لى أبى .

هو ـ وهل علمك أبوك أيضا ؟

هى ـ علمنى .

هو ـ ماذا ؟

هى ـ الحساب مثلا .

هو ـ لتحسبى به ماذا ؟

هى ـ كل شىء ... الأيام مثلا .

هو ـ وما الفائدة من عد الأيام وأنت كلما سئلت حتى عن أيامك لا تقولين الحقيقة ؟

هى ـ جميل منك هذا . هل أنت أصبحت تحسن الوخز بدون إبر . الحقيقة ؟ وهل ثمة حقيقة فى العالم ؟

هو ـ لا . الحقيقة هى الكذب الذى تواطأ الناس عليه .

هى ـ إلا الرياضيات على ما يقال ....

هو ـ إذا لم تأت قواعد حديثة تغيرها .

هي ـ هل الأرض تدور حول الشمس أو العكس ؟

هو ـ لم تجدي إلا هذا ؟ حقيقة ان جهلك علمني أشياء كثيرة ٠

هي ـ ليس أقبح من العلم الزائف ٠

هو ـ إني أرى نجوما في عينيك ٠

هي ـ ارعها إذن ٠

هو ـ ونجوما في فمك ٠

هي ـ هي لك ٠

هو ـ انسي ما حفظته من والديك ٠

هي ـ أنت أمي وأبي الآن ٠ وأنت انس النجوم ٠

هو ـ لولا النجوم ما وجدتك ٠

هي ـ وانا اغار منها ، اريدك لي ٠

هو ـ وهل أنا لغيرك ؟

هي ـ أصحيح ؟ (في فرح) وماذا ستفعله من أجلي ٠

هو ـ سأترك الكلام ٠

هي ـ قبلني ٠٠ زد ضمني بين ذراعيك ٠ آلمني ألما شديدا ٠

هو ـ وكيف؟ وانا أحبك ؟

هي ـ لو كنت تحبني لفعلت ٠

هو ـ أتجدين لذة في تأليمي إياك ؟

هي ـ ألم تعدني بترك الكلام ؟٠ إني أكرهك وأكره كل ما هو لك ٠ وأود تحطيمه تحطيما حتى جسمي بعد ما وهبتك إياك ، أنا أكرهك وأكره فيك نفسي ؛ لأني ٠٠ لأني ٠٠ أعبدك ٠٠ لأني ٠٠٠

هو ـ امـرأة ·
هي ـ اسكت · وقبلني ·

(ينزل الستار وهما متعانقان في قبلـة طـويلة جعلتهمـا يرتعشان ـ من عرائهما ـ وهكذا عاشت البشرية بين تعاليم الأم وفلسفة الأب ولا تعطي المرأة قبلتها للرجل إلا إذا وعدها بتملكه إياها في عبوديته لها · ولا ترضى إلا إذا وعدها بأن لا يقول لها شعرا) ·

أحلام حدى (*)

بالله واش زهاك قولى يـا شمعـه

رانـى عـانسقيك اعضيى سبـر

نظنوَ بيك هبال وكفـاخ وطمعـه

وزهيتى فى غير محلو عيب وعـار

عرفت « حـدى » لاول مرة في مدينة نفطـة سنـة 1937 ٠ وقدمني إليها صديقي الأستاذ م٠ خريف (1) ٠ وكنا كلنا فى ضيافتها ٠ فرأيتها ترتدى ملابس الرجـال وتتعمم بالشـاش الصحراوى ٠ وبالرغم من أننى لم أتمكـن من تقـدير عمـرها بالضبط ، فهى بلا شـك قد تخطت العقـد الرابـع ٠ وكانت بيضاء اللون لطيفة الأطراف والحركات ٠ وكانت لا تزال فيها

(*) حدى : شاعرة من أشهر شعراء الجنوب . رغبنا الى صديقنا صاحب الامضاء أن يترجم لنا بعض أشعارها من لهجتها العامية الى العربية فبعث الينا بترجمة أغنية الشمعة (ملاحظة الجريدة) .

(1) المرحوم مصطفى خريف



ـ رغم البياض الذى ذهب بلون عينيها ـ جاذبية لا أدرى ما هي، وما سلمنا عليها حتى أخذت تحدثنا بصوت قد تصنعت له لهجة الرجال حتى أصبحت تحاكيهم بدون ما كلفة ٠ وما كدنا ندخن « السبسي » الثالث حتى طلب منها الصديق خريف أن تنشدنا أغنية « الشمعة » فتبسمت كمن يبتسم لخاطرة أو ذكرى ، وكأنما قد عادت الأغنية لذاكرتها بما حولها من أيام شبابها ورفقاء سفرها حين كانت صبية كاعبا تشق الصحراء بين « تاله » و « القمار » و « وادى ريغ » و « نفطه » وكانت كما وصفها في إذاعة له الأستاذ خريف تجيد ركوب الخيل والمهارى ، وتحذق الصيد وهي تقول عن نفسها :

(راهي حدى عايفه) ٠٠٠ وأشعلت « سبسيا » بدورها ٠ ثم أخذت تنشد أغنيتها ـ لا بصوت المترجلة الذى كانت تحادثنا به بل بصوت المرأة الذى كانت تنشد به أغانيها قبل أن ترتدى ملابس الرجال ٠ وهي لم تترجل في زيها تظاهرا أو شغفا بالرجولة ، وهي الأنثى المعتزة بأنوثتها ٠ بل فعلت ذلك لتتمكن من حياة حرة لا يمكن أن تحياها وهي فى بخنوق وحلية ٠

٠٠٠٠ وكان منها إنشاد ومنا إنصات ٠ وحضرتنا أحلام حدى بلسانها تحدثنا عنها فتقول في رقة وترتيل :

ـ الأغنيـــة ـ

« كنا نسير فى الصحراء الواسعة وقد قرب الغروب وأعيانا السير وأتعب جمالنا وذهبت حرارة ريح القبلي بما فى أجسامنا من ماء ورطوبة ، فأنخنا رواحلنا ٠ وذهب كل منا يؤدى واجبه نحو رفاقه يهيىء ما عليه أن يهيئه ، فهذا يجمع الحشيش اليابس ، وآخر قد اتجه نحو البئر ٠ وكنت أنا أهيىء العجين والفلفل للعشاء ٠ وما فينا إلا فرح بهذه الراحة بعد أن أجهدنا أنفسنا فى السير فى الرمال الى حد الملال ٠ وكان يظلنا عن

الريح الحارة عرق من رمل مرتفع . ولم نلبث أن اشتد علينا الظلام ولم يبق من النور إلا بصيص النار تحت القدر . وبالرغم من ثقل الليل ، فقد كنت فرحة به لأنه انتقم لنا من عدوتنا الشمس وغربها كالمطرودة .

« أنا أحب الصحراء كما أحب امي ولكنى أسأمها أحيانا . وأى إنسان لا يمكنه أن يسأم كل هذه الرمال السخينة التى تدخل فى كل ما فيك حتى تسد عنك النفس وتخالط حتى طعامك وشرابك . وكم كنت أود ساعتئذ لو كانت هذه الرمال على شاطىء « رادس » شفة للبحر والماء .

« وبعد العشاء أخذنا فى طهى التاى لغسل حلوقنا من الرمال العالقة بها . وشرعنا فى تدخين التكرورى والعرعار ثم إذا أحد رفقائنا قام الى رحله فأخرج منه شمعة وود أن نشرب التاى على نورها . وكان القمر لا يطلع تلك الليلة إلا قرب منتصف الليل .

« وما كان احقر نور تلك الشمعة الصغيرة واقفة كاصبع الجنى فى هذا الوادى الواسع !

« على أن نور الشموع كان أحب الأنوار إلى لأن فى رقصه بين النور والظلمة رقص الانسان بين الحياة والموت . ومع ذلك فقد طالبت باطفاء الشمعة فى تلك الليلة لا كرها لها بل ضنا بنورها على هذه الصحراء المبغضة الى نفسى لكل ما عانيت من السير فيها عامة يومى . وسألنى رفيقى : ما يبغض اليك نورها فتحرميننا منها ؟ قلت : إنها فى غير محلها إذ لا يليق بهذه الرمال إلا الظلام ورائحة العرعار . قال : وأين تودين ان تريها ؟ قلت : بل قل اى مكان يليق بها . فأعاد على رفيقى السؤال كما قلت فالهمنى ربى الجواب فقلت : فى قصر مرتفع كالقصور التى يشيدها السعداء على شواطىء البحر

ـ والصحراوى يحب الشاطىء حب البحرى للصحراء الدافئة ـ جدرانه من رخام ملون ، وأبوابه مصفحة بصفائح النحاس اللامع وفى أحسن غرفة بالقصر بأعلى طابق منه فى سرير من خشب مزخرف بصور الطيور والأزهار منصوب بجانب النافذة المطلة على البحر الصاخب شاب أسمر اللون أسود العينين مرتد ثياب النوم يدخن سيقارته،وهو يستمع الى هدير الأمواج ووقع خطى محبوبته وهى قادمة نحو الغرفة وهو يترقبها بكل ما فى ترقب الحبيب من مرارة وحلاوة · ويقول : ألا تأتين ؟ فتجيب فى دلال من تعلم انه كلما طال ترقبها زادت الرغبة فيها : اصبر قليلا فالطبيب ينتظر وهنا تأتى الفتاة وفى يدها شمعدان فضى فتضع فيه شمعتنا هذه وتشعلها لتنزع على نورها ملابس النهار وترتدى لبسة النوم وهى تحاول ان تخفى عن عينى زوجها بعض اعضائها حتى يراها فى شوقه اليها أجمل مما لو كانت عارية · وكلما طلب منها ان تسرع تذكرت تلك الشقراء الجميلة شيئا وقامت نحوه تتثنى حتى تريه أن جسمها جميل فى حركاته كما هو شهى لذيذ عند امتلاكه ·

وهكذا بين الذهاب والاياب والتثنى تصل الأنثى الى ما تتطلبه الا وهو حدة الرجل وشدة توقه · فيصرخ بها على توقيع أمواج البحر : سأنزل من سريرى وأعلمك كيف يجب أن تلبى ندائى · فتبتسم له راضية وتلتحق به مطمئنة · وما تكاد تسكت صراخه بقبلة حتى يتنفس البحر بنسيم (الشرقى) فتنطفىء الشمعة وتموت عند موضع اقدامهما ولا يبقى الا البحر والحب ···)

* * *

هذه قصة الشمعة التى أنشدتناها (حدى) فى تلك الليلة · وهى ككل أشعار (حدى) فى لغتها وقالبها الأصلى أجمل بكثير منها مترجمة · اذ أن فى الأشعار نفسا دقيقا من روح الشاعر لا يمكن أن يترجم الى لغة غيرها ·

المركز النير

– 1 –

كان صاحب البرنس الرمادى جالسا أمام منضبدة عليها كأس القهوة وأقلام وأوراق . وكان صاحب البرنس الرمادى يدير جريدة أسبوعية انتقادية فكاهية . وكنت ممن كانوا يشاركونه فى تحريرها . وكنا نحررها ونصورها على مشرب هذه القهوة . فما رأيته حتى أقبلت نحوه . وكنت أبحث عنه لأمر يخص طبع الجريدة . جلست قبالته . وسألنى :

ـ هل صففت الصفحة الثالثة . هل صففت « أم القائل » ؟

وكان يعنى بـ « أم القائل » المقالة الاسبوعية التى كنا نخصصها لنقد أهل الفن وبالأخص المطربة مفيدة . وكان يتشدد فى نقدها . ويقسو حتى يجره النقد أحيانا للشتم المر .

قلت :

ـ صاحب المطبعة يقسم بطلاقه أنه لا يضع حرفا على رخامته ما لم يستلم أجر الطبع سلفا . أين الحوالة التى استلمتها البارحة ؟

قال :

ـ اسكت ٠٠٠٠ دفعت كمبيالة التارزى ، واشتريت بالبقية كبشا ٠

* * *

كان الرجل عجوزا صغيرا أعنى أنه تجاوز الخمسين ، ابيض شعره ٠ وما زال يحتفظ بقليل من نشاطه ٠ وكان جالسا بجانبنا ، ويستمع الى حديثنا ، وعلى فمه ابتسامة ، ترقرقت على شفتيه الكالحتين ، كما تترقرق الدمعة فى العين المهمومة ٠ ثم استحالت الابتسامة الى زفرة ٠ أعقبها نائحا :

ـ الكبش !!!٠

التفت صاحب البرنس الرمادى الى العجوز ٠ وسأله مازحا٠ فى لهجة الجاد :

ـ الكبش !!٠٠ أتدرى ماذا أعنى به ؟ هو تلك البهيمة التى تحمل قرنين ، وتجر خلفها شيئا كحجر السراويل ، تلك التى نضحى بها فى هذا العيد المقبل ٠

ـ ويلعب بها صبياننا ٠ آه !٠٠٠ الكبش ٠

* * *

كنت أظن أنه يأسف أن لم يبق طفلا ليلهو بالخرفان كما كان يفعل ، وهو صبى ٠ وكان صاحب البرنس وجد ما يسلو به عن التفكير فى أجر طبع الجريدة ٠ وكان العجوز يبكى ويبكى بكاء المسكين الذى لا يملك شيئا ٠ حتى أنه كان يبكى بأعين ناشفة ٠ ولكنه كان يبكى بكل وجهه ، ويديه المرتعشتين - وسأله صاحب البرنس الرمادى فى فضول الصحافى :

ـ عم تأسف ، يا عماه ؟

ـ كنت أود أن أكون أنا خروفا ٠ أنا نفسى

ـ وما يمنعك من ذلك ؟ لعلك فقدت زوجتك !

أجاب ، وهو يتغافل عن تنكيت صديقى الذى لا يحترم

شيئا في سبيل تنكيته :

ـ نعم فقدتها · ولكنها ـ رحمها الله ـ تركت لي طفلين وبنتا · راضية الصغيرة · لها خمس سنوات ·
هنا أسكت صديقي · وأفهمته برفسة من رجلي : أن الرجل جاد في شكواه ، وأنه مهموم البال ، وبرفسة أخرى ، افهمته : أن في هم العجوز رائحة الخرفان فليستدرجه الى الحديث ····

وكأن العجوز انتبه الى ما كان يدور بين ساقينا من رفسات انتهارية واستفهامية ، فتدفق علينا تدفق « مجردة » في موسم فيضانه :

ـ نسكن في غرفة في بيت لنا فيه أربعة اجوار · ولكل من أجواري أطفال في مثل سن صغاري ، اشتروا خرفانا تلهو بها صبيتهم إلا أنا ··· عفوا إني أقص عليكما ما لا يهمكما · وإنما لتعلما أني كنت أحب الناس للمزاح بدرجاته من تحت الصفر الى 40 في الظل · ولكني نسيت المزاح وانسانيه شقائي · عندما أرجع الى بيتي · واجد أكبادي كل منهم قد انتحى ركنا ، كئيبا ، واجما لا يبكي حتى ولا يطالبني بالخروف كأن الصغار فهموا من سنتين أن لا فائدة من مضايقتي بطلب ما لا أستطيعه · حقا إني لأتعس حالا من خرفان الضحايا ·

انسانا حديث العجوز أمر طبع الجريدة ·

بقيت أنا غارقا في ذكريات الطفولة عندما كنت الح في طلب خروف العيد من أمي المسكينة · ليسامحنا الله (أنا والخرفان) ؛ فلقد كنا نكلفها كثيرا · أما صاحب البرنس الرمادي ، وكان عمليا أكثر مني ، فانه اخذ يجول بنظراته حولنا كأنه يفتش عن خروف ضائع ، خروف يجيد القفز والنطح ليقدمه لصبية هذا المسكين يلهون به ويبكونه يوم العيد قبل أكله ·

التفت صديقي نحو العجوز ، وقال في لهجته الجادة دائما :

ـ ابشر ٠٠٠ هل لك حبل ؟

ـ لشنقي ؟

ـ لا ٠٠٠ لجر الحروف ٠

ـ وأين الحروف ؟ لـو وجـدته لحملتـه على عنقـي ٠ أين الحـروف ؟

قالها في لهجة بين اليأس والعتاب عن هذا المزاح المؤلم ، في مثل هذا الموقف ٠

ـ سأعطيك ورقة ٠

ـ : ذات ٠٠٠٠ كم ؟

ـ لا ٠٠٠ ورقة زيارة تقدمها لمن سأخط عنوانها (أريـد صرفك الى غادة ٠٠٠٠) على ظهرها (الورقة طبعا) وأنا واثق مائة في المائة (وهو لا يثق دائما الا بمثل هذا العدد الكامل) أنك سوف لا ترجع خائبا ٠

وفعلا ، اخذ قلما ، وخط على بطاقته عنوانا ٠ عنوان من ؟ عنوان مفيدة ٠ عدوته اللدودة مائة في المائة على حسب تقديره هو ، والتي يخصص عمـودا لشتمهـا اسبوعيـا ٠ تلك التي اشتهرت بقلبها الرخامي وبقساوة لا تضاهيها فيها امرأة ؟ ! مفيدة القينة !!!

قلت مرتابا :

ـ أتظن ٠٠٠؟ سوف تسخر من بطاقتك ومن العجـوز ! سخريتها بكل شيء ٠

قـال :

ـ ألم اقل إني واثق ٠٠٠ في ضمن كل ما أعلمه عنهـا ٠ اعلم انها امرأة ٠

قلت :

ـ اني واثق مائة فى المائة كالعادة لكن ... هى ...

وأنا أنظر وجه العجوز المبتسم ابتسامة الشاك فى حديث صاحبى ، والشاك فى .... العنوان المكتوب على البطـاقة . ولكنه بعد أن قلبها مرات ، قام بعد أن قال لصـديقى ما يقال عادة للشكر . وقام متجها نحو مسكـن القينـة يقـدم رجـلا ويؤخر أخرى . وكنت لما اعلمه عنها ، وعن أخلاقها فى مثـل شكـه .

حكى العجوز . قال :

ـ كانت الساعة الثـالثة عنـدما ضغط اصبعى على الـزر المنبه ، وفتح الباب الحـديدى حـارش مغـربى . فقـدمت له البطاقة . غاب قليلا ، ورجع تصحبه صـاحبة البيت . كانت مشوشة الشعر ، مورمة العينين من تأثيـر النـوم . وكأنها صحت على حس الزر الكهربائى. كانت ترتدى فستانا حريريا عليه رسوم أطيار وأزهار لم أر مثله . سألتنى عمـا أريـد . فأجبتها بالكلمة الواحدة التى تمـلأ قلبى وفمي « .. أريـد خروفـا .. » ظهرت عليها علائم الدهشة . وكأنها استغربت أن يطلب خروف من قينة . وبينَ التخت والمسلخ ما بينهما من بعد . ولكنها طلبت منى أن أتبعها . تبعتها الى صالون فخـم مشوش وضع الاثاث كشعرها ، ثمين الريـاش كفستـانها . جلست على مقعد واتكأت هى على حرف طاولة. وأخذت تسألنى قصتى . وقصصت عليها خبرى ، وخبر الصبية ، وخبركما . وكانت تنظـر الى الأرض ؛ فما رفعت رأسهـا حتى تبينت من خلال دموعى ، أنها تبكى بكاء هادئا مثلى ، وقالت :

ـ آه . ليت من يطالبنى بملاعبة خروف ... هيـا ننـزل الى الحديقة .

نزلنا الى حوش خلف الكرمة به أشجار وفيه خراف قائمة ، وأخرى رابضة فى جملتها ما ينوف على العشرة حول أعشاب



خضر ، وسطل ماء . ودخلت بينها تجس ظهر هذا وتربت على رأس هذا ، وتدفع آخر برجلها .

ـ هو ذا ... الذى يصلح لأطفالك الصغار . سيفرحون كثيرا بقرونه الطويلة الملتوية ، وسيباهون به صبيان الحارة .

تقول هذا ، وهى تمسح بمنديلها دمعا تساقط على خديها :

ـ أليس هذا رأيك ، يا أبت ؟

ـ الرأى ما ترتإين ، يا سيدتى .

ـ ألم تقل إن ابنتك الصغرى ... كيف سميتها لى ؟ راضية ... لها خمس سنوات . نعم هو ما قلته لى . لتأخذ إذن هذا العليلش لراضية . سوف يسرها . ألا تجد أنه وديع كبنيتك . هل هى كحلاء ؟

ـ نعم وجميلة .... كسيدتى ولو كانت لا يمكن ان تضاهيك جمالا .

ـ هى أحسن منى الآن .
ثم كأن خاطرة فاجأتها فسألتنى :

ـ اتسمح لى بمرافقتك الى بيتك ؟ إننى أريد أن أرى راضية تقتبل (العليلش) ؟

ـ البيت بيتك والبنية ابنتك إن شرفت ...

لم تغب إلا دقائق قلائل . وعادت ملتحفة . واقبلت نحوى مسرعة :

ـ لقد أرسلت فى طلب عربة لتقلنا الى راضية . هى ذى تذاكر المسلخ . هات حبلا ، يا سيدة ... يا سيدة !

لا أنسى فرح مفيدة ، وهى ترى راضية تعانق الحمل بكلتا يديها الصغيرتين .

ولا أنسى فرح راضية بالحمل وهى تحتضنه تارة ، وتقبله أخرى .

ولا أنسى فرح الصبية اخوتها بالحروف ، وهم يزينون قرنيه بكل الرقائق من كل الالوان .
ولا أنسى فضلكما وفضلك أنت بالاخص ، يا بنى ؛ لأن الدال على الخير كفاعله .

أجاب صاحبى ، وقد خلع برنسه الرمادى :

- لا تشكرنى على شىء . إنما الشكر لله الذى أبقى فى قلب القينة ناحية بيضاء ناصعة ينيرها نور الحنان . وهو أبهى الأنوار وأكثرها تلألؤا .

أمن تذكر جيران بذي سلم ...

- 1 -

كانت أما ، ولكنها بقيت امرأة .

توفى زوجها وترك لها ... طفلين فى حضنها ، ودموعا فى عينيها . فبكته طويلا ، وبعثت بطفليها الى كتاب الحى .

وكان المؤدب رجلا طيبا ، ولكنه قاس شديد ، وكان تقيا ، ولكنه بخيل . وكان يعلم عن هذه الأرملة ما يعلمه كل الجيران : أرملة فى الخامسة والعشرين ، جميلة ، زاهية ، ولكنها عفيفة . وكان للمؤدب طفل ماتت أمه ساعة وضعه ، فخطب الأرملة وتزوجها . فأصبح لسيدي المؤدب زوجة وللأرملة ثلاثة أولاد .
وما تزوجت الأرملة بالمؤدب حتى أصبحت الزاهية الضاحكة العابثة ، فى مثل ورع المؤدب ، ومثل تقاه : تؤدى الصلاة فى أوقاتها ولا تكلم طارقا الا من خلف الباب . ولم يكن لمؤدبنا هذا إلا عيب واحد — أو على الأصح ضعف واحد — هو حبه لجمع المال جمعا لما . والمال قوام الأعمال ، ولا يقام عنده الدين إلا بالدنيا .

— 2 —

كانت عادتنا أن نحتفل بأسبوع المولد على صاحبه أفضل الصلاة وأزكى التسليم • وكنا ننشد القصائد المولدية طيلة الأسبوع السابق ليوم المولد • وفى اليوم السابع منه — ليلة المولد — يأتى (مفرق) الأوقاف ليوزع على جميع صبيان الكتاتيب نصف ريال لكل صبى ، حبسا موقفا على أذكار المولد فى الكتاتيب • وكنا ننشد يومئذ اناشيد ، وأسماعنا مرهفة تتوقع وقع خطى « المفرق » فما سمعنا خطى إلا ارتفعت أصواتنا فى سلمها الموسيقى بقدر ارتفاع خطى « المفرق » على سلم الكتاب • وكان الظن السائد بيننا أن « المفرق » لا ينقدنا انصاف ريالاتنا إلا إذا سمع دوكاتنا وعراقاتنا وحجازاتنا من نصف طريقه الينا • ولم نكن نعلم بالضبط ما كان يأخذه المؤدب من الحبس • إلا أننا كنا نراه يتسلم شيئا من « المفرق » على البركة ، ولا يعده إلا بعد قراءة الفاتحة ، وخروج «المفرق» ؛ ففينا من يقول بأن المبلغ مائة ريال فضة ؛ وفينا من يراها ريالات معدودة • إلا أن الغالب على ظننا أن المبلغ ضئيل لأنا كنا نرى المؤدب / على ما عرف به من الورع / لا يتركنا نخرج بأنصاف ريالاتنا كاملة ؛ فالعادة التى سنها بيننا هى أنه كان يجرى علينا فى ذلك اليوم امتحانا شديدا ، وشديدا جدا ، نظرا لأنا كنا تركنا كل مراجعة طيلة سبعة ايام • ومن يجده يتلكأ فى سرد الآيات المطلوبة اغرمه غرما ماليا يتراوح بين ثلث الريال وسدسه • ولكنه لا يتشدد فى تقدير الغرم إلا على الأطفال الأثرياء • وكان آباؤنا لا يرون فى ذلك إلا دليلا على شدة اعتناء المؤدب بتعليمنا . اما نحن ••••

— 3 —

وكان بيننا طفل يسمى إبراهيم • وكان ذكيا ، فقيرا يحفظ كل ما يكتبه فى لوحه • ولكنه اذا جلس امام سيدى



المؤدب أصابته الغباوة • ولعل خوفه من وقع العصا على أطرافه الصغيرة هو الذى يتركه يفأفىء ، ولا تخرج حنجرته حرفا واضحا • وكان المؤدب يعلم منه هذا • فكان يكلف عادة باستعراضه محفوظات معينة ، وهو تلميذ فى القسم الثالث ، لكن فى يوم التفريق ساله المؤدب نفسه أن اقرأ ، فلم يقرأ إبراهيم • وكان عقابه / حسب التعريفة / ثلث ريال • ولم يبق فى يد المسكين سوى (جوز صوردى) لا تسمن ولا تصنع عصيدا •

ورجع إبراهيم الى والده المسكين باكيا • ورجع أحمد ابن امرأة المؤدب الى أمه • وقص عليها ما جرى لابراهيم المسكين فى حفلة التفريق • وكانت تعلم أن والد إبراهيم فى أشد الحاجة ، وأنه بدون نصف ريال المفرق لا يحضر عصيدة صباح الغد •

– 4 –

بعد أن سلمت من صلاة العصر خلف زوجها ، وخرج هو الى مقهى الحى دخلت الى فراشها ، وأخذت ــ وهى التى لم تسرق قط ــ تجس بيدها تحت الوسادة حيث يضع المؤدب كيسه • وفكرت فيما يجب اختلاسه من هذا الكيس لاغاثة إبراهيم ووالده • وأخيرا ، أخذت خمس ريالات ــ ثلاثة فرنكات فضية ــ وأرسلت ابنها أحمد فى طلب إبراهيم • وما حضر واختلت به حتى خرج الطفل يجرى نحو بيته باشا •

– 5 –

كانت العادة أن نفطر صباح المولد جميعا فى الكتاب من الصوانى التى يرسلها الينا أثرياء الحى من آباء تلاميذ وغيرهم من اهل البر والسعة ، فترى الشقاتل ، والقيروانيات كالبراكين الهائجة سائلة سمنا وعسلا وقشطة ورغيدا من

فستق ولبن ، وكان منا من يدخل وخادم يتبعه بصينية ، ومنا يأتى بطبقه بنفسه ٠

وأقبل ابراهيم ذلــك اليــوم بطبــق لم نر قط مثلــه بين الإطبــاق ٠

ــ 6 ــ

٠٠٠٠٠ وماتت امرأة المؤدب لعامين بعد زواجها ، وبكاها المؤدب وبكيناها نحن الصبية ٠

ــ 7 ــ

ولو أنك ذهبت يوم المولد الى مقبــرة « الفــدان » لوجدت رجلا يرتدى ملابس أنيقة ، ويحلى صدره بسلسلــة ذهــب ، جالسا فى خشوع عند قبر حجرى ، وفي يده « بردة المديح » ينشدها بنفس النغمة التى كنا ننشدها بها ونحن صبية ٠٠٠٠ وبين الآونة والأخرى تنحدر دمعة من عينيه ٠٠٠٠

القبر قبر « سارقة الريالات الخمسة » رحمها الله وغفر لها ٠

والرجل الذى لا يزال يبكيها منذ ثلاثين مولــدا ٠٠٠٠ هو إبــراهيم ٠٠

مجرم رغم انفه

- 1 -

كانت الساعة الخامسة صباحا . وكان جو المحطة غائما بسحب كثيفة من دخان القاطرات ، تنيره مصابيح ضئيلة . وكان قاسم أمام درجات إحدى الحافلات ينظر الى ساعة المحطة . فخاطب نفسه قائلا :

« ما تزال ساعة كاملة لموعد قيام القطار . ما أطول الساعات الأخيرة !..... »

جلس قاسم على مقعد فى مؤخر الحافلة . ووضع قفته بين ركبتيه . وأخذ في لف سيقارة بيدين ترتعشان . وأنست عيناه بظلام الحافلة . وأبصر قبالته شيخا بدينا جالسا ملتفا فى برنس أبيض نقى ، يعتم بعمة . وكان الشيخ كتمثال الشمع لا يبدى حراكا . ولا يأبه لحركات المسافرين . فابتدأه قاسم بالتحية :

ـ صباح الخير يا أبى الشيخ .

ولم يرد الشيخ التحية لا بأحسن منها ، ولا بمثلها . وأسر قاسم فى نفسه : « هذا عجوز قليل أدب . لكنى مجبور على

مرافقته ما دامت الحافلة خالية الا منا الاثنين » .

أشعل قاسم عود وقيد لإيقاد سيفارته . ورأى على بصيص نورها وجه الشيخ . وكان وجها وديعا حقا يوحي الثقة بصاحبه ، وقورا بذقنه الأبيض ، وعينيه اللامعتين . ورأى الشيخ بدوره قاسما .... وابتسم له .

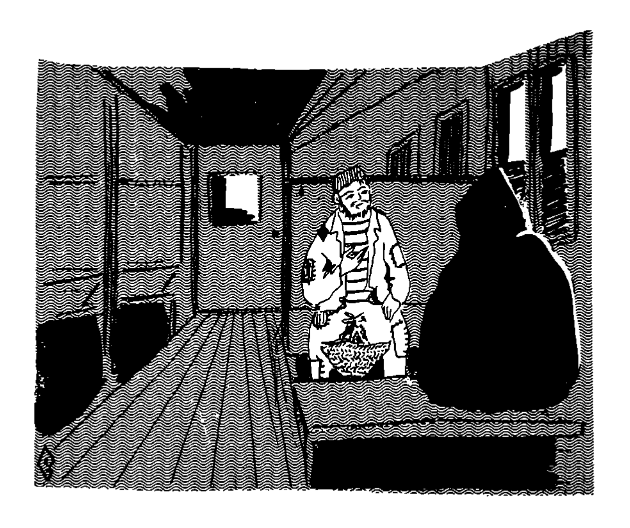
كان قاسم في الثلاثين من عمره ، طويل القامة ، قمحي اللون ، جذاب الملامح ، رغم كآبة تعلو وجهه ، وذقن لم يحلق من أيام ، يرتدى بدلة زرقاء قديمة ممزقة الأطراف ، عليها من الرقع ما على الخرائط الجغرافية من ألوان .

شجعت ابتسامة الشيخ قاسما لاعادة فتح الحديث مع رفيقه العجوز ، لا لقتل الوقت والطريق ، بل لأنه كان في حاجة الى بث شكوى كتمها مدة طويلة . واخذ في إلقاء حديثه دفعة واحدة ، وبلا مقدمة كما يطرح الحمال حمولته ثم ينفض كتفيه من غبارها . قال قاسم :

ــ اوه !... يا أبي الكبير !... لا يدرى الحياة من لم يبتل الحياة !... ما أقساها ... وما امر طعمها ! لقد حملت من اعبائها ما تنوء بحمله الجبال الرواسى . لقد ظلمت ، ومنيت بعلل ، روعت منها طول حياتي حتى تركتني أنهش قلبي ، وضميرى ، كما يفعل الثعلب عندما ينهش رجله بنابه ليتركها للفخ وينجو بالباقي . لقد زلت بى قدمي الى هوة الاجرام وأنا برىء . آه ...

وكان قاسم يتكلم بصوت متهدج في لهجة من تعود أن لا يتكلم جهرا . وكانت سيفارته ترتعش بين شفتيه . واستأنف حديثه :

ــ لا تنكر على قولي إني مجرم وبرىء . أنا هذا المزيج



الغريب . لقد قست على الأقدار استغفر الله ، فلقد لاقيت كل شيء ضدي مذ حملت بي أمي. مات والدي قبل أن ارى الحياة . وماتت أمي ، وانا صبي . وكفلني اخ أحمق بخيل . فكر ، وانا في السادسة ، أن يقصيني من تاله ، مسقط راسي ليستأثر بالارث دوني ، فأرسلني الى العاصمة عند ابن خالة لنا بدعوى طلب العلم كأنه لا يوجد بتالة مدرسة لتعليم صبي في السادسة من عمره ومن هنا بدأت سلسلة مصائبي .

« كان عمر الوذري ابن خالتي رجلا طيبا ثريا لا أذكره إلا بخير . قبلني بين أولاده كواحد منهم ، وسهر على تعليمي وتربيتي كالأب الرحيم . آه يا أبتي !.. ما أشقاني . لقد كنت أحس رغم حنان قريبي بنوع من الحنان ينقصني ويترك فراغا في قلبي وجدته .

« أراك تصغي الى حديثي ، ولكنك في قرار نفسك تهزأ من فتى يشكو الحياة ، ولم ير منها إلا سنين معدودة . ولكني تألمت ، وعانيت في هذه السنين القليلة الشيء الكثير . إني أصرخ الآن أمامك ، وأمام العالم ، والعدالة ، والقضاء بأني مظلوم ، ولم أفعل ما يوجب تحمل ما تحملته . لقد كنت سجينا أجر قيد الحديد ولم أطلق إلا أمس .. أتدرى ، يا أبي ، لماذا سجنت ؟ لأني دافعت عن شرف فتاة أحبها . أراك لا تحير جوابا ، ولا تبدي حراكا . معك الحق : فاني ابتدأت حديثي بخواتمه ، وسأقص عليك الآن أولا فأولا :

— 2 —

« كنت في بيت عمر قريبي مكرما ، مدللا ، كأني بين أبوي وإخوتي . وكانت بين بنات عمر فتاة في مثل سني جميلة ، ذكية ، علقت بها ، وعلقت بي ، ونحن صبية وأنستني بعطفها ، وحنانها ذل اليتم . وملأت فراغ قلبي . تحاببنا السنين الطوال حبا نقيا ، طاهرا من كل الادران حتى أصبحنا لا نفترق إلا في ساعات الدراسة . نعم ، يا أبي ، إن هذا الشقي الذي

تراه كان تلميذا نبيها في مدرسة ثانوية . وكانت هي أيضا تتبع دروس التطريز والتزويق في « ليسى » للبنات . وكنت أصحبها في ذهابها وإيابها من المدرسة .

« وكان في طريقنا الى مدرستينا دكان عطار لا تمر الفتاة أمامه الا غازلها ببذيء المغازلة التي اختص بها الرعاع والسوقة . وكنت أكظم غيظي ، وغيرتي . وأمر أمام دكانه مرور الأصم . وهذا ما شجع العطار الوقح على التمادى . وهذا ما ملأ كأسي حتى فاضت .

« فاضت ذات يوم ، ولم أتمالك نفسي من الدخول الى دكانه ، ولم أشعر إلا والسكين الذي يستعمله في تجارته في يدى اليمنى .. وصرخ العطار ، وفتح دولابا ليخرج سلاحا ، وسبق السكين ، فدخل قليلا في ذراعه . وصرخ العطار ، وفزعت غوغاء الشارع ، والتفوا حولنا . وكنت في مثل نوبة المحموم ، لم انتبه منها إلا أمام القضاء . واللعين يدعى أني أصررت على قتله لسرقة ما في صندوقه من مال ، وهو ثرى وأنا فقير .

« وشهد العون الذي ساقنا أنه رأى السكين يلمع في يدى ، ونية القتل تلمع في عينى . ورأى الدولاب مفتوحا ، وجرحا في ذراع العطار مفتوحا .

« أما أنا ، يا أبتاه ، فلقد كنت كالمصروع أفأفىء ، ولا أقول شيئا . ولم تحل عقدة لساني ، إلا وأنا في سجن ضيق . بكيت ، انتحبت ، وصرخت الى رفقاء السجن : إني برىء ! وهزأوا مني ...

« كانت كل القرائن ضدى .... وحكم علي بالسجن خمس سنوات مع الشغل الشاق . وعملت في « صواف » !. أنا . أنا الذى لم أترك المدرسة إلا للسجن .. فهل الذنب ذنبي إن كنت خلقت لأحبّ تلك الفتاة ؟ وهل الذنب ذنبي إن كانت

دمائى لا تحتمل سماع مغازلات العطار ؟ وهل الذنب ذنبى إن كان سكينه حادا يدخل فى لحم البشر كما يدخل فى الصابون والاجبان ، وبنفس السهولة ؟

« تركت السجن بعد مضى الخمس سنوات قضيتها بين المجرمين وسمعت من أقاصيصهم ما سمعت • فهل الذنب ذنبى إن كانت أبواب السجن لا تغلق إلا على المجرمين ؟

« لم أعد الى بيت قريبى ، وأنا أعلم أنه لا يقتبل متهما بالقتل والسرقة كما كان يقتبل التلميذ الذى كنته قبلا • وعلمت بأن الفتاة قد زوجت للعطار ••• الوقح ••• الشرى الذى لم يدخل السجن مثلى ، وكان هذا جزائى منها ••••

« لم يبق كثير بينى وبين الهوة التى تفصل بين عالمى الفضيلة والاجرام • أدمنت شرب الخمرة وقد قيل لى : إنها تعين على النسيان • فهل الذنب ذنبى إن كانت الخمرة لا تعين إلا على الكسل ؟ وعدت الى السجن والعمل فى حقول « جفار » وملاحة « حلق الوادى » ، وعدت الى تأثيرات أوساط الاجرام » •

هنا •••• فى سماء المحطة زفير بخار القاطرة مؤذنا بقرب تحركها •• وبددت أشعة الشمس الذهبية زرقة الفجر القاتمة • ولم يتحرك الشيخ من حديث الصعلوك ولا من زفير القاطرة الذى يصم الآذان •

واتسعت حدقتا الصعلوك ، ودخله شك فى أمر مستمعه • ووقف الصعلوك • ومسك كتف الشيخ متسائلا :

ــ « يا أبى !••• يا أبى !••• أسمعت قصتى ؟ »
أجاب العجوز :
ــ « أبو ؟ ••• أبه ••• عبا ••• أبو ••• »
وارتمى قاسم على مقعده مغمض الأجفان ، وهو يقول :
ــ « آه حتى هذا ! لقد كنت أشكو بلواى الى أصم أبكم ! » •
وتحركت دواليب القطار •

قتلت غالية ...!

— 1 —

جلس رجب على صندوق أمام المخزن ، وهو ينظر الى فرسه « الأزرق » ويقول له :

— كل علفك ، يا صديقي ، إذ لم يبق لى صديق غيرك أنت أحب الى منها .

أحب اليه منها ! لا . لقد كذب رجب . فغالية أحب اليه من نفسه ولا يعيش إلا لها وبها وبحبها . ولولا الحب الذى ملك كل حسه وملأ كل قلبه لما ترك حقله فى طبربة ، وترك ألعاب الفروسية والغناء فى الأعراس . لقد كان رجب أشهر فرسان الشمال التونسى . ومن أجل حب غالية استقر رجب بالعاصمة ، واستبدل سرج (الأزرق) بعربة نقل .

— نعم أنت أحب إلى منها ، تلك التى من أجلها تركنا حلبة السباق ، ونزلنا الى جر العربة الثقيلة التى لم نخلق لها ، يا أزرق . أليس من أجلها رضيت بتحمل قرقعة العجلات خلفك يا أزرق ؟

وكان (الأزرق) يهز رأسه بين الآونة والأخرى ، ويحرك فكيه كأنه يصادق على حديث مولاه ، وكأنه يأسف على الأيام

التى خلت والتى لم يكن يحمل فيها إلا السرج المطرز واللجام الفضى • ثم يعود الى علفه ممتثلا •

ويعود رجب الى محادثة فرسه :

— أين تلك التى كانت تخضب (سبيبك) بالحناء يا أزرق ؟ لقد مرت أيام لم أرها فيها ، تلك التى لم تكن تصبر على فراقى يوما واحدا • أما زلت تذكرها ، يا أزرق ، تلك التى كانت تطعمك السكر بيدها اللطيفة ؟ أتذكر مولاتك غالية التى هجرتنا ؟

وكان الفرس يشاطر مولاه لوعته فيصهل صهيل الألم بنفس قصير ، ثم يعود الى المذود •

ويعود رجب الى التفكير فى حب غالية ، وفى صد غالية ، ويحس بمثل وخز الابر فى قلبه ، ويقول مخاطبا نفسه وفرسه :

— لعلها علقت بغيرنا ، يا أزرق ؟ من هو ؟ آه الويل لمن يتحدى رجب ويزاحمه فى حب غالية !

— 2 —

أما غالية ابنة عم رجب وخطيبته ، فهى جميلة ، جذابة ، مزهوة ، مرحة ، مشغوفة بخطيبها الفارس الجميل شغفه بها • ولم يبق لإقامة حفلة العرس إلا ختم (عام الحزن) على وفاة والد رجب •

وكان رجب لا يقيم فى البيت مع عائلته إلا أنه يذهب كل يوم لرؤيتها •••• ومرارا •

حدث أن غضب مع عائلته ، فلم يذهب الى البيت منذ ستة أيام ، هى كست سنين عنده • وكان يتوقع فى كل ساعة طيلة هذه الأيام أن تأتى غالية لرؤيته ، أو تبعث أختها الصغرى لتنسم أخباره • ولم تفعل ، ولم تسع لازالة الخلاف ليعود الى البيت ويعود لها • فهل سلته ، ولم تعد تحفل بحضوره أو غيابه ، أم علقت بغيره كما أوحت له الغيرة ؟



خرج رجب من المخزن ، وقصد غابة البلفيدير . وكانت عشية يوم راحة ويوم صحو في مثله يحج القوم الى غابة البلفيدير ، وتضيق بهم مماشيها نسوة ورجالا ، فتيانا وشيبا ، أطفالا ورضعا يمرحون في حضن الطبيعة ليتنفسوا من نسيمها المجدد للحياة .

اتخذ رجب مكانا غير بعيد من الطرقات التي يمر بها الرائحون والغادون : فمن أم وبنيها ، ومن زوج وزوجها ، ومن غادة هيفاء تتأبط ذراع خطيب أو حبيب ، ومن شيخ وشيخة يشتركان في جميل الذكريات ، إلا رجبا فلم يكن يصحبه إلا فؤاد مكلوم تحرقه نار الغيرة . فلم ير من الناس ومرحهم إلا ما يزيد في لوعته . فهم أزواج سعداء ، وهو الفرد المهجور .

وأقبل الغروب . وازدادت وحشة رجب فرجع الى المدينة يجر أقدامه جرا ، هائما ، لا يدري أية جادة يتخذ . وقادته قدماه الى الحارة التي فيها البيت حيث تسكن الحبيبة . ووجد نفسه فجأة أمام الزقاق .. وأظلمت الدنيا ...

وقف يفكر فيما يجب أن يصنع : أيطرق الباب ، ويطرح من كبريائه أمام عظمة الحب ؟ أم يترقب ليلة سابعة لعل غالية ترسل من يستدعيه ؟

رأى شبحا ملتفا في برنس أبيض يخرج من البيت في حذر من لا يود أن يرى .

هو هذا الحل ! فهذا المتسلل هو الذي احتل مكانه من قلب غالية . إنها سلته ، ولم تحفل بغيابه لأن قلبها في قبضة هذا الذي يخرج من لقائها خروج اللص . وفعلا فهو اللص الذي سرق لرجب أثمن ما كان يملكه في هذا البيت .

لم يتمالك رجب من إخراج مسدسه ، وتصويبه في حركة آلية صوب لابس البرنس ، وأطلق عيارا على المعتدي الأثيم .

وسقط الشبح على الأرض . وود رجب أن يرى وجه هذا

الغريم ، وهو يلفظ آخر أنفاسه ·

ورأى ··· ويا لهـول ما رأى !··· رأى ما جعلـه يسقط بدوره كالمصعوق بجانب ضحيته وهو يصرخ :

ــ « أنت ··· أنت ··· غالية ··· مـاذا صنعت بنـا ؟ قتلتك بيدى لقد قتلت حبى بيدى !··· »

ــ أنت ··· أنت ··· ليسامحك الله !

ــ : لماذا تخرجين هكذا ؟ بهذا البرنس ؟

ــ : لأتقى أعين الرقباء · لم أطق صبـرا على غيـابك قد طـال ·

ــ : رباه ! ماذا صنعت بك وبنفسى ؟

ــ : كنت آتية الى ·····

وأغمى عليها · ورأى الدم يسيـل من نحـرها على شـالها الأخضر وضحك رجب ضحكة رنانة ، ضحكة الجنون ·

وماتت غـالية بعـد يـومين · وذهبـوا بـرجب الى مـأوى المجاذيب · رحمها الله ·

موت العم « باخير »

- 1 -

كان فى الحارة التى ولدت فيها عجوز سقاء يسمى « العم باخير » . وكان رجلا خيرا ، طيب القلب ، ورعا ، لم نعثر له على زلة قط . إلا أنه كان شاذا فى كل شىء . ولعل فى شذوذه ما يحببه الينا ، نحن صبية الحارة ، ويثير فينا استطلاعنا ، ويجعلنا نترصد حركاته كلها .

* * *

قلت : إن (عم باخير) يعمل كسقاء . وكان يدخل كل بيوت الحارة يشاهد بحرية كل نساء الحارة ، يزود واحدة بالماء . ويطلب من الواحدة أن تعيره مهراسها ، ومن ثالثة أن ترقع له ثوبه . وكن جميعهن يقتبلنه فرحات باسمات .

كان (عم باخير) خفيف الروح ، دميما دمامة عليها مسحة من جمال التناسب ، مما يجعل دمامته مقبولة . فالأنف البارز المكور تعلوه عينان حمراوان ، تحتهما فم واسع ، له شفة سفلى متورمة متدلية فى مستوى أفقى مع ذقنه . وعلى الجميع لون من ألوان الاشراق وطلاء من البشر . ومما يزيد فى خفة ظله أنه كان لا يملك صندوق ملابس بل كان يرتدى كل ما يشتريه .



فتراه مثلا معتما بعمة بيضاء عليها مجرمة حمراء ، ثم يربط الجميع بخيط من وبر قاتم اللون • ويرتدى فى أوقات الراحة الجبة ، والبرنس ، والقشابية ، والبلوزة صيفا وشتاء •

* * *

كنّا نراه طيلة يومه إما فى عمله بين السبالة والبيوت ، أو جالسا على عتبة المسجد يذكر الله سرا وجهرا • أما فى الليل : •••

كان (عم باخير) يسكن مخزنا وهبه له أحد أثرياء الحارة ليستغله فى مقابل اعتنائه بحمار يملكه صاحب المخزن • وكان حمارا « منبها » أعنى أنه لا ينهق إلا فى ساعة بعينها : ساعة الغروب • وما يكاد يسمع (عم باخير) نهيق رفيقه حتى يقفل راجعا الى المخزن ويوصد بابه بكل المفاتيح والمتاريس وتبتدىء حياته الليلية •••••

* * *

وبعد أن يزود بيوت الحارة بما يلزم من ماء يخصص لنفسه الثلاث قرب الأخيرة ••• قلت : لنفسه ، وسترى أى استعمال يستعملها (عم باخير) ؛ فهو يسكبها جميعا فى برميل كبير • وكنا ، نحن الصبية ، نتجسس على (عم باخير) تجسسا مشينا لو كنا نعلم أنه تجسس ، ولكنا كنا نراه نوعا من « الفرجة » البريئة تسلينا لا أكثر ولا أقل •

وكانت فى باب المخزن ثقوب بعدد أعيننا الصغيرة • فكنا نراه يتعشى أولا ما يجود به صاحب المخزن ، ثم يوقد شمعات عديدة حوله ، وقد تبلغ فى أيام يسره عشر شمعات وأكثر ••• ويضع الشموع الملتهبة حول البرميل على الأرض ، ثم يضع خشبة على فم البرميل الذى به الماء أفقيا ، ثم يجلس عليها واضعا رجليه فى الماء • ويضع حول عنقه مسبحة ذات مائة

حبة · ويأخذ « قصبته » يربت عليها بكل حنان ، وينفض ما قد علق بها من غبار ، ويضعها بكل تؤدة وخشوع على شفتيه · ويضع أصابعه على ثقوبها ، ثم يسمى باسم الله ويقول : « اللهم إنى نويت عزف « الطرق » الأول لروح أمى وأبى رحمهما الله »·· ويأخذ في عزف « الطرق » وتخرج أنغامه وتملأ الجو الفائح النير برائحة الشمع ونوره · ثم يستأنف عزفه لأرواح الأولياء والصالحين · وهكذا ··

* * *

كثيرا ما نهاه فقهاء الحومة ، وإمام المسجد عن التزمير ، وعن هذه الطريقة التي سنها ، والتي لا تقربه الى الله زلفى · وكان لا يحفل بنهيهم ويجيب :

ـ « أنا رجل عامى جاهل ، لم أستطع حفظ شيء · لقد دخلت الكتاب وخرجت ولم أتعلم إلا محى الألواح ··· وإن لم يقبل ربى منى عزفى ، فهو لا يضر بأحد ··· غفر الله لى ولكم » ·

ثم يقول ، وكأنه يخاطب نفسه :

ـ « ربما رفعتنى الملائكة الأبرار الى البقيع يوم أموت ·· على توقيع مائة « قصاب » أو أكثر ··· »

ونجيب نحن الصبية :

ـ « ربما ··· »

ويستعيذ « الفقيه الورع » بالله من شقاوتنا ، وجهل (العم باخير) ، ويقول :
ـ « إن الزبانية أنفسهم لا يحفلون بموت مثل هذا الزمار الجاهل والعنيد المغرور » ·

— 2 —

حزنت الحارة كلها يوم لم تر (عم باخير) أمام السبالة وا أمام المسجد · وعلمنا من نسوة الحارة انه مريض بشلـل حـل برجليه · وأن الثرى صاحب الحمار ، وكان خيرا بارا ، حملـه الى بيته وأوكل الى بناته الأبكار ـ وكن جميلات عفيفات ـ شان تطبيب العجوز والسهر عليه وخدمته · وقلن أيضا : إن الابكار الثلاث سهرن على علاجه كما يسهرن على خدمة قريب عزيز ·

* * *

مات (العم باخير) مساء يوم الخميس السادس والعشرين من رمضان أمام الفتيات ، وهن يسقينه ماء الـزهر بأيـديهن العاجية ، غفر الله له ·

أما فقيه الحارة وإمام المسجد ، فما زالا يرزقان من أحبـاس الأوقاف ، أطال الله عمرهما ·

— 3 —

لاقيت في هذه الايام أحد رفقاء الصبا ممن كان يصحبنا الى سـماع تزمير (العم باخير) ، وتذكرنا تلك الايام ، وتذكرنا ثقوب باب المخزن ، وتزميـر « أطـراق » العجـوز وشمـوعه وسألته :

ـ ما فعلت الأيام بالمخزن ؟

قـال :

ـ اكترته إحدى جمعيات الموسيقى · أرأيت اعجب من هذه الصدف ؟ حقيقة لا عجب في أمر الله !

سهرت منه الليالي ...

- 1 -

كانت الخالة امرأة ممتلئة الجسم ، يتحرك كل جـزء منهـا بمفرده ، وهي تطلع درج السلم لاهثـة ، شـاخرة ، تتصبب عرقا ، وهي تصرخ مداعبة ابنة أختها من قبل أن تراها :

ـ : أين أنت ؟ أين ؟ ما هذا بسلم ! هذا الصراط ! أين أنت يا فتاتي ؟ لعن الله هذا الشحم الذى يعوقني عن التنفس .

ـ : خالتي ! سلامتك يا خالتي ! تفضـلي . هو ذا المقعـد الذى يريحك ، ويريح شحمك . لكن دعيني أقبلك .

وتقبلها ، وتجلس الخالة على المقعد ، وهي تزيح عن وجهها العصابة السوداء . وتتفرس قليلا في وجه زكية ابنة أختهـا وتسألها :

ـ ما هذا ؟ ما لعينيك مورمتين ؟ أكنت تبكين ؟

ـ هو ذاك .... لا يمكن إن أخفي عنك شيئا يا خالتي .

ـ ما أبكى عزيزتي ؟ ما أبكى صغيرتي ؟ قولي لخالتك الحنون كيف ؟. أتبكين في العام الثاني من زواجك ؟ هي أخلاق أمك المسكينة ، وهي في دار الحق ونحن بدار الباطل ، تتجلى فيك .



لقد كانت ـ رحمها الله ـ ولوعة بالبكاء ، احكى لخالتك كيف تعيشين ••• مع •••

ـ : كما وددتني أن أعيش في جهنم منـذ ألقيت بي في جحيم هذا الزواج •••

ـ : هذا زوجك •••

ـ : زوجي ؟ قولي جلادي ، فقلبه قلب جلاد ••• وهو يقتل كل يوم شيئا مني • ستجدينني ميتة جامدة في زيارتك المقبلة إن لم أذب وأسل دموعا من عيني •

ـ خففي عنك••• احكي لي الاول بالاول ما وقع بينكما•••

ـ إنه رجل خبيث أحمق ، سكير يسكر كل ليلة ، ولا يأتي بعد كل منتصف ليل إلا ليعربد على وعلى طفلي • آه ! لو لم يكن حمادي ابننا بيننا !•• آه يا خالتي لقد كان في أول سكراته يشتمني شتما مقذعا ، وينعتني بأقبح النعوت ولا يسميني إلا بأخبث أسماء الأسماك والطيور : فانني « حسب الحمار » بين الطاووس والوطواط ، أو بين التـن و « النـازللي » القبيـح الرأس • ثم يجبرني على إيقاد النار وطبخ « المشلـوش » بعد الساعة الثانية من منتصف الليل ، وإلا فاني استحيل في نعته الى حمارة لا تجيد الطبـخ ••••

ـ أعوذ بالله ! أعوذ بالله ! هذا شيطان !•• وشيطان بذيء القول !•••

تقول الخالة هذا ، وهي تنظر شزرا الى باب غـرفة النـوم الموصود كأنها تسأل قريبتها بعينها إن كان ما زال نائما أم هل خرج لتعرف أي طريق تسلك في نقدها له ؟

وتجيب زكية :

ـ إنه لا يصحو إلا بعد منتصف النهار •••• كعـادته • وإن صحا ، فلكي ينام ثانيا !

ـ ينـام ؟

بين الكتب والجرائد التي تأخذ كل وقته . فانه لا يكلمني إلا وهو سكران . فان صحا فهـو للكتب والاوراق . هي ذي تملأ كل الغرف . والويل لي إن فقد منها ورقة . ليتك زوجتني أميا مثلي ! إن عشرة هذا لا تطاق .

ـ : لا تطاق !.

ـ تصوري أنه رجع ليلة أمس يترنح سكـرا ، ورائحتـه كرائحة النسناس ، وعثرت رجله بكتاب ألقاه الطفل المسكين ، ولم انتبه له ، فصب جام غضبه على الطفل ، ولطمه لطمة كادت تخرج روحه ، وودت افتكاكه منه ...

ـ الطفل أم الكتاب ؟

ـ الطفل يا خالتي !.. حمادي !.. فلطمني أنا بدوري !

ـ كيـف لطمـك أنت ، ولا تقـولين لي هـذا من الأول ؟ آه .... إن الأمر أهم مما كنت اظن ، كيف ؟ أيرفـع يـده على امراته وأم ولده ، هذا لا يطاق... وصلنا الى اللطم ! اسمعيني يا فتاتي . أنت صغيرة ، فافتحي أذنيك الى نصـائح خـالتك المجربة : لقد زففت الى ثلاثة رجال ، وانا أعلم الناس بهم . إن الرجل الذي يضرب امراته ليس برجل (تحتـد الحـالة كـل الحدة ، وتصرخ في ابنة اختها) اسمعي ! اطلبي طلاقك منه ، وسنحاكمه ، ونطالبه بتعويض ، وندخله السجن . إن القضاء ، وكل الشرائع (الخمسمائة دين) لا تبيح لأي رجل كان لطم امرأة ضعيفة . اطلبي طلاقك منه ! قلت لك ... اذ ليس بعد اللطم من معاشرة !

ـ : الطلاق هو ذاك .

ـ : . اتصبرين على معاشرة هـذا الفظ ؟ ! قلت : إنـه احمق ، قلنا لا بأس ككل الرجال . قلت : إنه يسميك بأسـماء البهائم قلنا لا بأس سيغير نعوته ونحسن معـاشرتك لـه . قلت : إنه سكير . قلنا : لا بأس ستنتفخ كبده ويترك الخمرة .

قلت : إنه يحب مطالعة الكتب ، قلنا : لا بأس وهي وإن كانت ضرائر لك إلا أنها أخف وطأة من ضرة بشرية واحدة . لكن وصلنا لسوء المعاشرة والضرب ... اطلبي طلاقك ، وأنا الضمينة بحصولك عليه من أقرب السبل .

ـ كيف يا خالتي ؟

ـ : « إن كان دمك هذا دما مثل الذى يجرى في عروقي (تقول هذا وهي تنظر الى معصميها المكتنزين ، والتي ضاقت بهما الأسورة الفضية) إن لم يكن دمك ماء وسكرا وعصير برتقال ، وإن كنت حقا ابنة اللبوة منجيه اختي ـ رحمها الله ـ فستقومين توا الى لم أدباشك وتخرجين معي الآن . وعلى أنا الباقي .

ـ 2 ـ

تخجل زكية .. وتصعد بصرها لباب الغرفة ، غرفة النوم ، وتصوبه الى الارض
ـ : خالتي لا ترفعي صوتك !

وتتحمس الخالة . ويهتز كل جسمها اهتزازا لا تجيده إلا المرأة الشعبية ، وهي غضبى . وتصرخ :

ـ لا ارفع صوتي ؟. سأرفع صوتي ويدي ! لا أرفع صوتي ؟ ولماذا من فضلك ؟

ـ لئلا تزعجي ... تزعجيه !

ـ أزعج من ؟

ـ هو . دعيه ينام ... المسكين ... لقد سهر كثيرا ليلة البارحة يا خالتي ! ..

سر الغرفة السابعة

ـ 1 ـ

قال الطبيب ، وقد جذبناه بشتى الحيل للخروج من صمته :

ـ إن سر المهنة يمنعني من إفشاء أسرار زبائني ، إلا أنني سأقص عليكم قصتي هذه لما فيها من عبرة ، ولا احتفظ لسر المهنة إلا بالأسماء الحقيقية للأمكنة والأشخاص . وأقول : إني كثيرا ما استمعت الى خرافات العجائز بما فيها من خوارق أحداث الأغوال والمردة . وكما قال شاعرنا سكاليزي : « قد أصدق الخرافة عندما تخرج من فمك يا أمي » . ولعل في القليل الذي سمعته من خرافة طباختنا العجوز ، وهي تقصها أمس على أطفال البيت ما ذكرني بقصتي هذه .

وقال أحدنا :

ـ ما كانت خرافة العجوز الطباخة ؟

قال :

ـ كانت تروي لهم قصة الساحر الذي اختطف ابن السلطان، وطار به الى القصر المسحور الذي به سبع غرف كلها ذهب ، وفضة ، وعاج ، وآبنوس ، ولابن السلطان ان يدخل أيها شاء ، وأن يصنع ما شاء بما شاء منها ، إلا الغرفة السابعة، فحجرة . وتوعده بالقتل إن حاول حتى إيلاج مفتاح في كوبتها .

ثم سكت ، وتركنا متشوقين الى قصة شوق ابن السلطان رؤية ما في الغرفة السرية • ثم بعد أن مسح نظارتيه ، واشعل لفافة ، أتم حديثه قائلا :

ـ « كنت منذ سنوات عالجت لى مستوصفى امرأة من مرض ما سرى خبيث يقتضى الحقن اشهرا متوالية • وكانت جميلة لولا أن شوه الداء من شفتها السفلى • وكانت !•• كيف أنعتها لكم ••• « خضراء » ••• لقد فهمتم بلا شك ، اعنى خفيفة••• وفعلا كانت خفيفة الروح تجيد الحديث فى أدب واتزان لم نعهده من مثيلاتها •

« قلت إن تطبيبها يقتضى زيارتها مرارا كل أسبوع للمستوصف حتى أنست بها وأنست بحديثها • ولايقلقنى كثيرا أن أسمعها تقص ما تعانيه المسكينة من مرير العيش • وقد فقدت الفائض والبعض من راس المال • وهذا ما جعلنى أعالجها مجانا • لا أقول هذا تبجحا ، وإنما الواقع انى كنت أحنو عليها بجاذب لم أدر مصدره • وكثيرا ما سالت نفسى : أى دافع دفع بهذه المسكينة الى حياة استهتار وشقاء • وكنت أتصورها لو كانت ربة بيت ، وأم أولاد ، وزوجة عامل مستقيم •

« تماثلت من البرء وانطفأت كل عوارض ذلك الداء « الوقح » • وأتتنى يوما تشكرنى على عنايتى بها • وقدمت لى « مبسم » صدف مطعما بالفضة ، وقد لاحظت كثرة تدخينى ، فقبلته ، وقد أعجبنى لطيف ذوقها فى الاختيار •

ثم قولها :

ـ هذا أقل من أن يقدم اليك •

فضحكت وقلت :

ـ « زيدينى ـ اذن ـ هدية أخرى » •
خجلت المسكينة ، ولم تدر ما عنيته • وفتحت فمها

وعينيها ، مذهولة . فانقذتها من حيرتها بتقديم كرسى لها وبقولى :

ــ لا . لا . ليس ذاك ... سأطلب منك شيئا أثمن بكثير من كل هدية مادية . اريد منك أن تعطينى شيئا من سرك ... سر حياتك .

أما هى ، فكأنها لم تفهم . وعدت الى تفسير سؤالى :

ــ « أريد أن أعلم أيمكن هذا ، ولم تخنك ذاكرتك عما جذبك الى هذه الحياة .. أعنى ... »

اغرورقت عيناها دموعا ، والقت بنظرها الى زجاج النافذة اللاشفاف وكأنها ترى فيه شاشة فى دمعها من أشرطة لطفولتها وصباها من شقاء وسعادة .

ــ « لا بأس عليك فالدموع تطهرنا من كل دنس ، وما دامت فى عيوننا دموع فلا بأس علينا » .

قلت هذا بصوت مرتعش وقد اخضل جبينى بالعرق ، وللدموع وقار . حتى ... دموع « الخضر » .

ــ 2 ــ

قالت :

ــ : « لم أتصور مثل هذه الحياة ، وانا فتاة ولو حلمت بها ف نومى لصحوت فزعة الفزع كله ! فلقد ربيت فى بيت محافظ . وكان والدى ــ رحمه الله ــ رجلا من غير هذا الجيل : شديد الغيرة ، شديد المحافظة على العادات البلدية القديمة ، شديد التزمت ، ثقة ، ورعا شديدا ، ومغاليا فى كل شيء ، فلا يتركنا نغادر البيت حتى للحمام ، وحتى لديار ذوينا الأقربين ، ولا نعرف من الرجال إلا هو ، وجدى ، وعمى وخالى ؛ ولا من النساء سوى أمي وخالتي . وكنت أنا وأخت تصغرنى بسنتين

تجهل عالم ما وراء جدران البيت • مع هـ . فهـو لا يحرمنـا شيئا من أشياء المآكل ، والملبس ، والزينة من حلي ، وحلل ، حتى المشموم والحناء ، واللّب • لا أدرى الآن إن كان يجب أن أضحك ، او ان أبكي من حياتي تلك • فلقد جاوزت السـابعة عشرة ، وأنا أجهل كل شيء عن الرجال » •

* * *

وقاطع الدكتور أحد الأصدقاء محتجا :

ـ « ما علاقة الحقن والمبسم الصدفي بسر الغرفة السابعة ؟»

وعلا ضحك الجماعة • وجذب الطبيب يد صديقه المحتج • وبعد أن جس نبضه ، وبعد التحقق من أن المحتج غير مصاب بحمى ، ولا يخشى منه إلا عدوى الضحك ، استأنف حديثه :

ـ « لقد صبرت أنا أكثر من ساعة على سماع هذه القصة • واعنت محدثتي على ربط حديثها ببعضه • وانت اعلم الناس بتفكك احاديث النساء ، وكيف يلجن بك من حديث الطقس الى الحديث عن حلقة الحياطة ، الى غربال الشعر ، وانت لم تطق سماعها في عشر دقائق • سأصف لك بعد انتهاء الحديث وصفة مفيدة لتهدئة الأعصاب • وكما قيل : « لو سكت لمت على جبل عرفـات » •

قلنـا :

ـ « أتمم حديثك ودعه يموت اين شاء » •

وعاد الى حديث المرأة • قال : قالت :

ـ « كثيرا ما كنا نسمع أمنا تحدثنا عن الزواج ، والأزواج إلا أن كلا منا كانت تتخيل هذه الأشياء كما شاءت » •

وكنا نعلم أن أبي تزوج أمي ، وامي ولدتنـا • أمـا كيف ؟ ولم ؟ فهذه أسرار لا تقولها أمي حتى إنها تحظر علينا مشهـد مخاض قطتنا « مرجانة » • وتسجننا في غرفة حتى يتم ذلك •



« كنا نسكن بيتا عتيقا بدور واحد ، إلا أن سطح البيت به غرفة ، والغرفة محجر علينا دخولها تحجيرا كليا · ولـم نـر والدى ووالدتى يقصدان الغرفة المتروكة · وتحجيرهما هذا أذكى فى نفوسنا نار الاستطلاع ، وترك لخيالنا أن يتصور ما شاء من أسرار وكنوز هذه الغرفة اللعينة · إلا أننا ما نصل الى الدرج الموصلة الى الغرفة إلا وثنانا خوفنا من العقاب ·

« فى قيلولة من قيلولات الصيف ، وكان والدى متغيبا عن العاصمة ، وكانت أمى تقيل فى مقصورتها ، تواطأت مع أختى على شق عصا الطاعة ، والصعود الى الغرفة الجذابة على أن تطلع كل منا بدورها ، وتبقى الأخرى للعسة · وسبقتها أنا ·

« لم يكن للقفل مفتاح ، وإنما بها مزلاج مصدأ فتحته بعناء ، وفتحت الباب ، واذا بى فى غـرفة مـربعة صغيـرة ، كسـا جدرانها العنكبوت والغبار ، وتمازجا ، وما تـأنست عينـاى بنصف نور الغرفة ، وتأنست رئتاى بثقيل هوائها حتى رأيت خلف الباب كوة صغيرة فى مثل عنق القلة ، لا تحميها قضبان حديد جعلت للتضوية والتهوية ولهلاكى أنا ·

« اول ما صنعته ، بالطبع ، هو التطلع لعالم لم تعد تحجبه عن عينى الجدران الكثيفة · ورأيت !

« كان البيت الذى خلفنا يدار لاشياء « سرية » · وقد علمت ذلك بعد · ولم ار ساعتئذ من كوتى إلا رواقا صغيرا ، وفرشا مطروحا على الأرض عليه فتى وفتاة أمامهما مائدة عليها قوارير ، وكؤوس ، وشقة بطيخ احمر ، وثلج ·

« لم أنزل رغم إلحاح أختى إلا بعد نصف ساعة ، نصف ساعة كدهر تعلمت فيها كل شىء ·

« وعدت الى غرفة السطح ، وعدت حتى تفطنت بذلك أمي . وضربتني . وحتى علم بذلك أبي وضربتني الضرب المبرح ، وحتى الليلة التي وضعت فيها بشكيرا على رأسي وذهبت الى البيت ...... المجاور » .

سكت الدكتور .

وسأل أحدنا :

— « ما فعل الله بالصغرى ؟ »

وسأل آخر :

— « لم ترك والد الفتاتين الكوة ، ولم يعمل على سدها ، وكان ذلك هينا عليه ؟ »

لم يحفل الدكتور بهذه الأسئلة . ورآها خارجة عن موضوع القصة . وود لو يتمادى في تفسير « رد الفعل » في نفوس الأحداث ، وتأثير المفاجأة والمباغتة بالأشياء التي يجب أن نقبلها بالتقسيط . ووددنا نحن لو فعل ذلك ، إلا أنه تذكر وعدا فقام إليه وهو يزمر الغنية : الهوى والشباب ...

نزهة رائقة

وصلت القاطرة محطة رادس ، فنزلت • وبين غوغاء الباعة ، وضجيج المقتبلين والمودعين ، وقفت افكر اية جادة أتبع • وبلدة رادس تقسمها المحطة الى « رادس عليا » و « رادس الشاطى » ، وانا لا ادرى فى أى القسمين توجد « فيلة » صديقى عبد الله التونسى ؛ فلقد دعانى صديقى ، هذا ، الى الغداء فى « فيلته » الجديدة • وهو كلف بها ، لا يتحدث إلا عن آجرها ، وما كلفته ابوابها ونوافذها • إلا أنه لم يذكر لى موقعها ، كأنه يظن أن « فيلته » هذه هى زهراء قرطبة ، أو برج بيزه ، أو مدفن حيدر آباد •

بقى لى أن اسأل عنه ! ولكن الى اين اذهب • ومدينة رادس (١) بها ما يقرب من 35.000 ساكن • وأسأل بينهم عن عبد الله التونسى ، مع العلم بان ثلث السكان مسلمون وان • • • كل حديثى عهد بالاسلام يتسمون بهذا الاسم •

وما أخرجني من حيرتي هذه ، إلا انّي رايته واقفا امام باب المحطة ، وهو يجهد نفسه في عد عربات القطار •

---

(١) في الأصل : ولكن اذهب مكاني في رادس وبه ما ؟ .

قلت :

ـ « هو ذا أنت ! » ٠

قـال :

ـ « أهلا وسهلا ٠ لقد ظننت أنك لن تأتى ! » ٠

ـ : « هذه آثام ٠ ألا تدرى أن بعض الظن إثم ٠٠٠ ومـا دفعك الى هذا الظن ؟ » ٠

ـ : « لا شيء ٠٠٠ هيا ٠٠٠ فهم يترقبوننا » ٠

ـ : « من ؟ » ٠

سكت صديقى لحظة ـ وقلمـا كان يجيب عن سـؤال ـ ثم استأنف حديثه قائلا :

ـ : « ستعرف اليوم أخى عميرة » ٠
ـ : « وهل لك أخ ؟ » ٠

ـ : « كل المؤمنين إخوة ٠ اما هذا ، فهو أخـى ، وإن لم يحملنا بطن واحد ! » ٠

ـ : « هو أخوك من أبيك ؟ » ٠

ـ : « هو نصف أخ لنصف أخى ٠٠٠٠ أعنى أنـه ربيب امرأة أبى الثانية ٠ وقد قدم اليوم من « الساحل » فى سيارته الخاصة » ٠

ولا يذكر صديقى عبد الله سيارة أخيه الخاصة إلا كما يذكر « البرنس أوف ولز » قصر « برمنفهام » ٠

اقتربنا من « فيلـة » غريبة الشكل ٠ وسمعت صوتـا فى داخل نفسى يقول : « إنها لعبـد اللـه ! » فهى فى خـارجها كشكول من كل الأشكال المعمارية : فالطراز الأندلسى يزاحم بمنكبيه طراز النهضة الايطالية المزخرف بافريـز « لـويس الخامس عشر » ويزين الجميع جليز نابلى مشوش الوضع على ما قتضيه الذوق العصرى الذى يكره التوازن ٠

فلو رأيت إذ ذاك صديقي عبد الله التونسي ، وهو معتم بطربوش عليه عمامة حريرية ، ومرتد بدلة إفرنجية عليها جبة من قماش « القمراية » لعرفت مثلي أنه صاحب « الفيلــة » . وجاء في المثل السائر : « كل البيوت على أصحابها تقع » .

هذا عن « الفيلة » وصاحبها . أما (ربع أخي صديقي) فقد وجدناه واقفا بجانب سيارته الخاصة ، وهو يتسلى بالتطلع في دقـائقها ، وكأنه يراها لأول مرة ... وله الحق ، فهي أغرب منظرا من مسكن أخيه .

سيارة لها كل الألوان ، وكل الأشكال . ولكنها لا تنتسب الى طراز نوع خاص . إذ هي خليط من كل أنـواع سيـارات الدنيا العتيقة والحديثة . والعجيب أن مجموعة القطع الحديدية التي يتكون منها محركها تدور وتدفع دواليبها الى الدوران . ولصاحبها أن يدور بها طرق الدنيا ، وحتى طريق الآخـرة ، ولكني لا أضمن له أن يعثر في دورانه على شركة ضمان واحدة تضمن له هذا الكدس من الحديد والمطاط .

وقدمني اليه عبد الله ، فاذا هو رجل في مثل سـن أخيـه (أي : لا سن له) طويل القـامة « يحمـل » أنـف ملاكـم ، ونظارتين خضراوين ، وبدلة زرقاء عليها « كدرون » أسود ، وينتعل « بلغة » صفراء عليها « جزمة » صفراء أيضا لامعة تسر الناظرين لعلها أثمن ما يرتديه . ولعـل « تشريفـات » أخيه عبد الله جعلته يرتدي هذا الزي « الرياضي » ليعلم من لا يعلم أنه هو صاحب السيارة . وإن كان لا لزوم لذلك . فلقد عرفت ذلك من نفسي أيضا (وقلب المؤمن دليله) .

رحب الضيف بصاحب البيت ، وكنت أتوقع العكس ، في مصاحة لم أتبينها جيدا لفأفأته وصمم أذني اليسرى . والغالب على الظن أنه رحب بي أيضا ، ثم دعانا الى ركوب السيارة .

قلت :

ـ : « سوف نتشرف بذلك بعد الغداء » .
قال عبد الله :
ـ : « سنتغدى على البسط الخضراء » .
قلت :
ـ : « أي بسط ؟ » .
وكاني حزرت ما يعنيه فاتممت سؤالى متعجبا :
ـ : « في مثل هذه القيلولة ؟ » .

واجاب عميرة الفافاء في ست دقائق جوابا لم يصل اذنى منه إلا : ... ظلال ... واشجار ...

ثم قال عبد الله :

ـ : « أنت فى مقام أخى هذا ، ولذا فانى ساقـدم إليـك أختـك » .

قلت ، وعلى فمى كل علامات الاستفهام والتعجب :
ـ : « أختى ! ! وهل هى هنا ؟ » .
ـ وأين تود أن تكون فى مثل هذا اليوم ؟
ـ حيث تركتها !
ـ وأين تركتها ؟
ـ فى بيتها ... طبعا .

وضحك عبد الله بأسنانه الصفراء . وضحك عميرة أخوه ضحكة رياضية جعلت أنفه الرياضى أيضا يغور بين وجنتين صنعتا من البطاطس الشهيرة بقرية غار الملح .

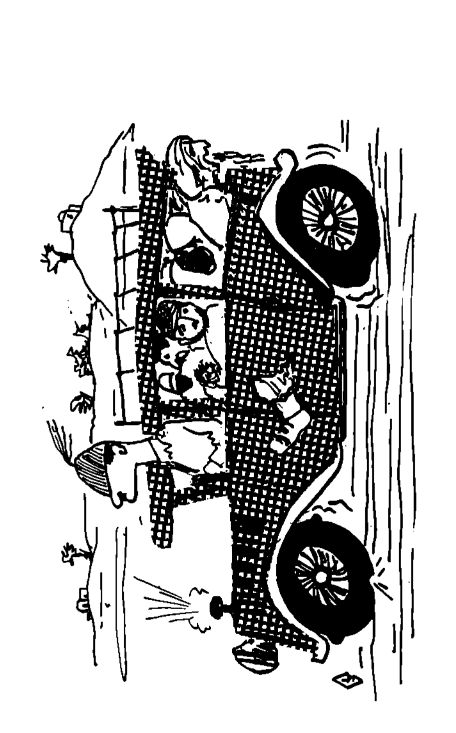
وتكلم عبد الله تقاطعه القهقهة ، وعميرة بفأفاته المضجرة . وفهمت أخيرا أن عبد الله يعنى بأختى زوجه المحترمة .

دخل عبد الله « فيلته » وخرج بعد قليل يحمل أطباقـا ثم

أطباقا . ثم أخرج سلة مملوءة خبـزا ، وقـوارير ، وحققـا . وأخرج عميرة بسطا و « كليمـا » و « فاشكـة » في غلاف من سعف أصفر، وقفة حبلى كالدهر الذى ليس يدرى ما يلد ... وأقبلت تتبعها « أختـى » امـرأة عبد الله ، وهى تتهـادى فى ملحفتها المملوءة بها . وأقبلت تتبعها امرأة أخرى لم أر منها إلا أنفا بربونيا عليه خال يقع على أعلى قممه ، ثم تبعتها عجوز رأت أنها تخطت العقـود التى تحتجب فيهـا المـرأة ، فكشفت عن وجهها ، ورأت بثاقب رأيها أنها امرأة على كل حال . فـزانت هذا الوجه العتيق بحاجبين مدهونين بصباغ أسـود فى غلظ البنصر يمتـدان افقيـا من الصـدغ الى الصـدغ ملتصقين . ووضعت دائرتين من اللون الأحمر على وجنتيها . أضافت الى كل هذا فما واسعا قصيرة أسنانه الاصطناعية ، غليظة شفتاه الاصطناعيتان ، وبشرة لا تصلح الا لعالم أثرى أو طاوى آبار ، ولولا خصلتان من الشعر الأسود الحالك تستران صدغى الأم « ددو » وهى أحسن خصالها وتعطيان هذا « القناع الصينى » إطارا جويـا يحبس الضحكـة فى حنجـرة الهـازىء لفضحنى الضحك من هذه الغاسلة المتصابية .

وأفهمنى عبد الله باشـارة « اشمئـزازية » أنهـا حمـاته ـ والعياذ بالله ـ ورحبت بنـا ، أنـا وعميـرة ، الأم « ددو » بكلمات تقال عادة فى مثل هذا الموقف ، وتقولهـا هى ، وهى تتمطط وتغمز بكلتا عينيها الغائرتين . وكان جزء من جسدها يتحرك من نفسه ، لنفسه ، ليعبر عما يكنه كل هذا الجسم البالى من بقايا عجب وغرور .

وتبعتهن فتاة دون العاشرة . لا أقول عنها إلا أنها الكوليرا الصفراء (لو كان ثمة كوليرا صفراء) أكثر حركة ودورانا من النحلة ، وهى كوم عظام متحركة يكسوها جلد شكلاطى وشعر أصفر مشوش صفرة محلول « الاوكسيجينى » ولا ادرى لماذا ذكرنى هذا التنافر بوجه الخمروس .



جلست أنا وعميرة السائق ، وبيننا الفتاة الابليسية على المقعد الأمامي ، واكتظ المقعد الخلفي بالمرأة المجهولة وبجسم الحماة المتصابية ، وجلس أمامها عبد الله وامرأته • وبين أرجل الجميع كل القفف والقيروانات والأطباق ، وكان من حظى أن أودع عندى (فاشكة) وقفة فيها بيض وزبدة وعلب (السواقر) وتوكل عميرة على الله ، وعلى محركه ، ونفثت سيارتنا دخانا من أمامها ومن خلفها •

وسارت بنا تتعثر ، والناس من حولنا يبتسمون ، ويوسعون لنا الطريق •

علمت أن الفتاة ابنة للمرأة المجهولة ، صاحبة الأنف البربوني والخال ، وأنها أكثرت من رفس رجلي ، وأن كل العائلة تدللها ولا تنهرها ولا تردها عن شيء لأنها ضيفة وابنة ضيفة ، وأنا ضيف مثلها وليس من مبادئي تحمل ثقل دل الضيفات الابليسيات ؛ فلقد وددت أن أقذف بها من نافذة السيارة وأريح جنبي ورجلي من رفسها المتتابع ، وما منعني من ذلك إلا انشغال يدى بالقفة والفاشكة • فاللعينة تختار المنعرجات الخطرة لتمسك بيد قريبها السائق وتجذبها بقوة لتسأله بكل برودة عن اسم تلك الشجرة أو ذلك الشخص الواقف حذو خندق الطريق • وتصور أن السائق أبسط من الفتاة وأكبر منها حمقا فهو يترك دفة القيادة لمشيئة الله ، ويلتفت نحو الشجرة أو الشخص موضوع السؤال ، أو تراه يحاول مسابقة سيارة نقل ، وهو يكرر نفخ بوق الانذار ، وهو لا يسابق إلا سيارات النقل ، فترمى الشيطانة الخبيثة بكل جثتها بين يدى السائق وتجعل من نفسها حاجزا بينه وبين الدفة ، وتكون إذ ذاك ساقاها ، بالطبع ، تعملان في جنبي أو في ظهري رفسا موقعا على حسب الوحدة ••• ولقد وددت ، والله قرصها قرصا لاذعا ، لولا خوفي من صراخها الذى سوف يزيد في التشويش على السائق المسكين ، وبين يديه دفة القياة ، وحية رقطاء ،

وأرواحنا جميعا .

كنا نسير في طريق سليمان في سرعة لا وجوب لذكرها . وكانت الفتاة لابسة حذاء من قماش به رباط طويل ، وما رأيت أشجارا إلا وقلت هنا سنتغذى بحول الله . ويمر عميرة السائق بالأشجار وكأنه لم يجع ، أو لم يرها ، وتعاقبت الحيبات والرفسات ، وأطرقت أفكر في أمر هذا الغداء الذي لن يحين أجله قريبا ، ولم أعد أحفل بأشجار الطريق ، ومن عادتي الملعونة أني كلما أطرقت أفكر في شيء أخذت يداي في عمل شيء ، وفي حركة آلية ، بدون أن أقصد ذلك العمل لذاته ، والغالب على ظني ، أني في إطراقي إذ ذاك ، كانت يداي تعبثان برباط حذاء الفتاة ، ولم أدر الى الآن كيف دخل رباط الحذاء في أذن القفة ، ولم أدر أيضا لم اشتبك بنفس الحركة الآلية برباط الفاشكة . ولكم أن تعتقدوا سوء نيتي أو حسنها ، المهم ، والواقع ، أن الفتاة جذبت في صراعها المستمر رجلها فجأة ، وفي حركة آلية أيضا ، جذبت معها قفة البيض تتبعها الفاشكة في ثوبها القشي ، وأحست الفتاة بدورها بثقل في رجلها فأعادت الحركة غضبى : وتناثر البيض ، وتناثرت السواقر ، وقطع الزبدة ، واختلط أبيض البيض بأصفره ، واختلط كله بملابسنا ، وفاحت رائحة ما في الفاشكة قبل كسرها ، وكثر تساؤل القوم عما وقع كأنهم لم يروا ما فعلته ابنتهم بالزبدة والتبغ والبيض . وبما أنهم كانوا يودون إيداعه بطونهم ازدانت به ملابسهم الأنيقة ، وكان حظي مما فعله الزجاج بيدي ورجلي أكثر من حظ الجميع .

وبالطبع ، أضافوا بخبث هذه العملية الى حساب البنت المدللة . ولم يفكر أحد منهم في اتهامي بشيء ، وبعد عمليات الكنس والمسح ، استأنفنا السير لا الى المكان المعين للغداء ، ولكن لعين قريبة من ذلك المكان لنزيل بمائها ما علق بنا من أبيض وأصفر وأحمر .

هذه العين لا يعلم مكانها الا عبد الله · وبإرشاده ، تركنا الجادة المعبدة الى طريق لا تطرقه إلا الأرجل ولا تطرقه إلا نادرا ، كثر فيه تعثر السائق والسيارة ·

أما أنا فاني كنت شديد الوثوق من أن الوصول الى عين زغوان أهون وأقرب من عين لا يعلم مكانها إلا عبد الله · وما زلت أذكر لصديقي عبد الله نوادر غريبة فى أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر ؛ فهو أحب الناس لفعل الخير وإرشاد الضال ·· وإن كان قليل التوفيق ، فليس الذنب فى ذلك ذنبه ، وإنما الذنب ذنب من استشاقه وعمل بمشورته ، ولا أنسى يوم كنا فى مدة الاعتصام بحمام الأنف ، إذ ذاك عشرة أضعاف ما كان به من سكان قبل الحرب · وقل الخبز قلة أقلقتنا على بطوننا وأجاعتنا ، فكان اللاجىء منا يقضى الساعة والساعتين فى صف المخبز لأخذ حصته · وفى يوم كنت قضيت ساعة ونصفا فى ترقب دورى أمام المخبز ، ولم يبق بينى وبين الباب إلا أفراد قلائل ، وإذا بصديقى عبد الله أمامي لا أدرى من أين أتى وسألنى .

ـ ماذا تصنع هنا ؟·

كانه لا يدرى ما كنت أصنعه وأجبته :

ـ أشترى الخبز ·

فاقترب منى وأسر فى أذنى :

ـ لماذا لم تستشرنى فى هذا ؟ اسمع وافهم : خبز هذا المخبز أردأ أنواع الخبز ، ولى خباز صديق صدوق ، وخبزه أشد بياضا من خبز هذا ، سأقدمك له ، وسوف يعطيك ما تشتهى من أرغفة ومتى شئت · هيا اتبعنى ·

قلت ، وأنا لا أودّ أن أترك مكانى من الصف :

ـ لنترك هذا الى الغد · ها أنت ترى أنه لم يبق إلا دقيقة

واحدة لاخذ حصتي من هنا .

وكانه غضب من قلة ثقتي بصداقته للخباز صاحب الخبز الأبيض فقال :

ـ هيا اتبعني . وسوف لا تندم ... مالك !... أتشك في صدقي ؟..

كنت أعلم جيدا أني سأضيع فرصة ترقبتها ساعة ونصفا . ولكن قوة خفية في عبد الله وخجلا وضعفا مني ، دفعتني إلى سماع ترهاته . فتركت مكاني آسفا أمام تعجب الناس . وذهبت أتبع عبد الله . وبعد أن جبنا البلدة ومررنا بثلاثة مخابز وصلنا الى الكوشة المقصودة واذا بها موصودة الأبواب.

وقال عبد الله :

ـ لعله نزل الى تونس يبتاع الدقيق .

لم أجب بشيء ، وإنما رجعت على عقبي الى المخبز الاول . ولم أصل اليه إلا بعد أن نفدت كل الأرغفة ، ولم يبق إلا أنا وعبد الله وجياع يترقبونني في البيت .
كل ما وقع أمام المخبز وقع في التفتيش عن العين . فبعد أن دخلنا أرضا رملية رخوة كسبخة لا يسير فيها « الطنك » إلا بصعوبة قصوى ، وبعد أن بعدنا عن الطريق المعبدة بما يقرب من تسعة كيلومترات ، وقفت بنا السيارة وصرخت امرأة من خلفنا :

ـ هل وصلنا الى العين ؟

وقالت أم الفتاة :

ـ لقد قرص الجوع مصارن ابنتي !

كانها هي في مأمن من قرصه .

وأجاب عميرة :

ـ بالمحرك خلل بسيط .

ونزل اليه يختبره ، ثم أردف قائلا :

ـ هما الشمعتان .

وسألت العجوز :

ـ هل تضاء بالشمع ؟

وقالت امرأة عبد الله في لهجة الخبيرة بكل الأمور :

ـ لقد كذبت حاسة شمي مرارا وأنا استنشق شذى شمع يحترق ...

وقال عبد الله :

ـ لا . لا ، تلك رائحة البيض امتزجت برائحة كحول الوقد .

وأخذ عميرة في اصلاح شمعه وأخذني خوف من اصلاحه أكثر مما كان أخذني من سياقته المشاغبة اللعينة .

ونزلنا نستكشف المكان الذى أوقعنا طالعنا فيه .

وقال عبد الله : إنه يعرف المكان جيدا ، وهو يعرف كل شيء جيدا ، وهو يقترح أن يبقى عميرة يحرس الحريم ويصلح ما أفسده الدهر من محركه ، وهو يدعى أنه يعلم مكان العين المزعومة . ولكننا الآن اقتربنا من بئر فلنذهب أنا وهو والفتاة لنستسقى منها . وحملت أنا وهو دلوا من قماش ، وحملت الشيطانة الصغيرة « شربية » ودلنا عبد الله على الطريق كعادته . وبالصدفة التى تعترضنا مرة في العمر ، وقعنا على بئر وتسابقنا أنا والفتاة اليها . واذا بعبد الله يتبعنا منذ رأى ماء هذه البئر شديد الملوحة ، ويخلف شرب مائها حصى فى الكبد ، وأن البئر التى يقصدها هى غير هذه . وبنفس الضعف المخجل ، اتبعنا الدليل الذى لا يرحم جوعى ولا الفتاة المتعثرة برباط حذائها . وكان يسرع في خطاه نحو أرض جبلية . وأخذنا في تسلق ثناياها فى عناء شديد . وبعد قطع

ما يقرب من ثلاثة كيلوميترات ، أخذ يفتش عن مكان البئر وكانت الفتاة التي تصحبنا أشد نباهة منا فانها سألته :
– هل تفتش عن بئر لتحفرها الآن ؟

وكما توقعتم ، فقد رجعنا بأوانينا خفيفة الى البئر الأولى ، ووجدنا ماءها حلوا مستساغا ، روانا ، وازال عنا ما علق بنا من أبيض وأزرق .

رجعنا الى المكان الذى تركنا به السيارة والنساء . ووجدنا عميرة قد جعل من سيارة واحدة الف قطعة حديدية مبثوثة هنا وهناك .

ونظرت الى ساعة السيارة . والعجب أنها هي الآلة الميكانيكية الوحيدة التي تسير بشبه انتظام فى هذه السيارة الملعونة . واذا الساعة الثالثة والنصف ، ولم يبق أمامنا إلا الأكل وإرجاع الألف قطعة محركا ، ولم يبق إلا اربع ساعات ونصف للغروب وعوننا بالله .

لنترك عميرة يعبث باسطواناته وأقراصه المربعة والمسدسة ، وهو يعوم فى بحر من الكلاليب والمطارق المبثوثة حوله بث الزيتون على بسط القاطفين (ولا أقول الجناة عمدا) لا نسمع منه إلا (تيك تيك دم درن درن) مما يشكوه الحديد من أصابعه التي لم تخلق إلا للتدخين ، ولننظر فى أمر الغداء ....

قلت آنفا : إن الكحول الذى أعدوه للطبخ قد اريق وكسرت فاشكته أشنع تكسير ، ولم تبق من طريقة لإيقاد نار إلا جمع حطب ، بشرط أن يكون قابلا للالتهاب . وحزرت بفطنة لم أفطن بوجودها قبل تلك اللحظة في يا فوخي أن عهدة التحطيب ستناط بنا أنا وعبد الله والفتاة .

ورأيت هنا أن الأهون هو أن أقوم بمحاضرة طويلة مقنعة في فوائد أكل الطعام باردا . وارتجلت لهم أسماء يونانية

وعربية ولاتينية لأعلام نصحوا بذلك· وارتجلت حججا وحججا لا شك أنها أبرد بدرجات من الطعام البارد إذ لم تهضمها أدمغتهم المتخمة بأشياء أخرى لا داعى الى ذكرها هنا · وعوض ما كنت أتوقعه من تصفيق حاد متواصل لا نهائى ·· ختمت محاضرتى باحتجاج العجوز :

ـ بالله ···· هلا اضعت وقتك هذا فى جمع شيء يوقد أكثر من الحديث ؟·

وقالت إحدى المرأتين :

ـ حديثك يفيد كثيرا لصنع (الجيلاط) ·

وودت أن اهرب منهن الى الشيطان ذاته لو علمت عنوانه · وود صديقى عبد الله أن نهرب منهن الى التفتيش عن الحطب · ولم أجد مخلصا إلا أن أجيبه بالموافقة ، وأنا أنوى التخلص بالهروب منه فى الطريق ·

وسرنا ، وأنا أردد فى نفسى قول الحمار الفيلسوف · ولا أعنى به الفيلسوف الحمار فتنبه ! عندما قيل له : « إن أصحاب عرس يدعونك الى الوليمة » ·

فأجاب برصانته المعهودة وهو يحرك أذنيه : « هذا إما لحمل الحطب وإما لحمل القرب » ·

وقال عبد الله : إنه يعلم مكان غاب صغير به حطب ، وذكرت حديث اللدغ والجحر ففتحت مذاكرة مع الداعى قلت :

ـ أترى الجبل ؟

قال : نعم أراه ·

قال:هذا،وهو يضع نظارتيه كان (بوفرنين) لدقته لا يرى بدونهما ·

قلت : أوفيه حطب ؟

قال : بدون شك ! هذا الشائع عنه !

قلت : أليس هو الغاب الذى تعنيه ؟

قال : الغاب حوله ، أعنى بقربه ٠

قلت : فى كم من الوقت نصل الى حطبه ؟

قال: أراه قريبا ٠

قلت : سألتك عن الوقت ٠

قال : بالضبط ؟ لا أدرى ، ربما فى نصف ساعة !

قلت : ما أحسن ظنك بالطرق ، بيننا وبينه ساعات طويلة ، وسوف لا نرجع منه قبل الغروب وقد فعل الجوع بنا ما تعلم ولم يبق إلا أمران ولك الخيار فما اخترته عملنا به ٠

قال : هات !

قلت : خذ ٠٠٠ إما أن نتغدى غداءنا كما كنت أنصحكم ، باردا شهيا ، وإما أن نوقد بعض هذه الأعشاب بعد أن نسقيها بنزينا ٠

قال : وقد فتح كلتا عينيه ولم يغلق بعد ذلك إلا واحدة كمن فهم جملة من جمل « نيتشه » ٠

البنزين ٠٠٠٠٠ والسيارة ؟

قلت : وهل بقيت سيارة ؟ وقد فعل بها عميرة ما فعل ! هى اليوم لا تمشى ببنزين طبيعى ولا صناعى فلنستعمله للوقود خير من عدم استعماله مطلقا ٠

ورجعنا ببعض الأعشاب واولعناها حسب ما تآمرنا عليه ٠ وكانت فكرة مصيبة بعض الاصابة إذ انى كعادتى لم أحسب حساب الفتاة التى لم تر النار حتى أصبحت كالفراشة (أعنى : كالفراشة المجوسية) تحوم حولها حبا لها وعبادة وشيطنة ٠

وفي كل مرة تصرخ أمها بصوتها الحلقي :

ـ ابتعدي يا كبدي لئلا يشويك اللهيب لا شوى الله كبدي فيك يا عزيزتي ، يا كليبتي ويا عصفورتي ٠

وتبقى تشبهها بكل الحيوانات البرية والبحرية ٠ أما الكبد العزيز ، فهي لا تحفل بما تنشره أمها من جواهر بلاغتها وقد انحصر همها في أن ترى النار « ترعى » بستانها « المزهر » ٠

كما اني لم أحسب حساب النكهة التي سيخلفها البنـزين فيما كتب لنا أن نأكله من الغداء ، كنا إذ ذاك نحرق أصابعنا بالتوالي ، ونحن نتبادل حراسة الأطباق على أثافيها ، وكلنا على النار (أعني : نحن والاطباق) ٠ وفـرشت البسط وهيئت الأماكن لكل منا على قاعدة عدم اختلاط الجنسين ٠ وفتشنا عن عميرة في خضمه الحديدي فلم نجده ٠ وبعد البحث والفحص وتتبع آثار رجليه في الرمل عثرت عليه الفتـاة العنـود تحت السيارة يتظللها وليضللنا نحن بدورنا ٠ ادعى أنه كان يصلح خيوطا في أسفلها ٠٠٠٠ هو ٠٠ هو الذي لم يتمكن من اصلاح أعلاها ٠٠٠٠ وعلى كل حال ، لم نحفل كثيرا بما يصلح أو بما يفسد أو بما يقول ٠

وكانت الأطباق تفوح بهارات ،وفلافل ، وبنزينا ، وكان الطبق الأول سلاطة ، قد حضرتها الحماة السليطة كأحسن ما « يسلط » من طماطم وفلفل اخضر ٠ وكان طبقا لذيذا لولا أنها غلطت غلطة أو غليطة اذا شئتم ٠ هي أنها اختلطت عليها الحقق والعلب ، فوضعت التاي الاخضر عوض النعناع الشهي ، كما اعتاضت عن الملح بالسكر في طبق « الكوشة » وحصل ما يتوقع من جراء غلطاتها هذه ، إذ هي كما استعاضت عن الملح بالسكر في طبق اللحم وضعت ملحا ونعناعـا في « البـراد » المعد لتحضير ما يمكن أن يكون تايا ٠
انتهى غداونا ٠ ولم نأكل منه إلا الخبز والماء ، وقام عميرة الى

إفساد ما بقى من سيارته وهو يهيب بأخيه :

ـ هيا الى إرجاع هذه ·

ويعنى بهذه الالف قطعة الحديدية ·

وضحكت ضحكة مكتومة من غدائنا هذا ، ومن حياتنا هذه ، فكل جزء من حياتنا يعيد نفسه فى كل لحظة · ها نحن أخذنا طيبات الحياة الشهية ولم نقنع بها كما خلقت ، ووددنا تحسينها ، وتكيفها ، وصقلها ، وترقيتها ، فتشعبت ، وأضحت كطيبات غدائنا هذا ···

وكانت غرائزنا البشرية تسيرنا وتسير فينا من نفسها بنفسها ، كما كانت تسير سيارتنا · وأتى جماعة من علماء وفلاسفة حكماء ، وحاولوا إصلاحها ودرسها وفحصها لطرح ما فينا من شر وقلعه قلعا ، وتحسين ما فينا من خير ، ففصلوا بعضها عن بعض وأوقفوا سيرها ، وجعلوا من غريزة البشر آلاف الكتب كل كتاب يحوى آلاف الفكر المفككة المطروحة (كرواشك) سيارتنا التى لا يمكن أن تسير بعد الا مجرورة الى هاوية (جبل الجلود ، وبيدون فيل) حيث تطرح القطع التى لم تعد تصلح ·

هذا ما فعله عبد الله بغدائه وما فعله عميرة بسيارته وما نفعله بحياتنا وأنفسنا دواما · فالويل لأنفسنا منا · كنت أقول هذا ، وأنا أستعيذ بالله من هذه الأفكار القاتمة الكالحة· وأتجه نحو نقطة سوداء كلما تأملت فيها ازداد حجمها كبرا ، ولما تبينتها فاذا هى عربة نقل ، يجرها بغل قد تدلى لسانه الى جانب أحد فكيه ، كما تفعل بغال تنظيف العاصمة فى فصل الحر · واتجهت مسرعا نحو السائق ، وأنا أدرى جيدا ما نويت القيام به ، فقد فقدت كل ثقة بالسيارة والمسير لها · ووجدت سائق العربة رجلا بدويا يحتقر السيارة ومخترعيها الكرام ، ويكرهها كرها شديدا ، لما تخرجه خلفها من دخان وغازات

قذرة تضجر انفه وأنف بغله .

وبعد أخذ ورد ، اقنعته بأن سيارتنا لم يبق فيها ما يخشاه ؛ أولا : لأنه سيجرها هو خلفه بعربته ، ولا خوف هنا لا من غازات بغله فقط . ثانيا : أن في صحبتنا « حريما » لا يمكن أن نتركه يخلد في هذا البرزخ الرملي . وما زدته اقتناعا بأن عمله هذا إنساني إلا عندما وعدته بمكافأة تغرى أطيب الناس أمثاله على فعل الخير وإغاثة المرأة الضعيفة (آه لو علم المسكين كم هي ضعيفة) .

ما رأى عبد الله العربة حتى التفت نحوى مذعورا ، وسألنى في حدة لطيفة :

ـ ألا تكفى هذه السيارة الملعونة وما نقاسيه منها حتى تشفعها بعربة قذرة كهذه ؟ ما تريد أن تصنع بها ؟

وأفهمته أن العربة القذرة ، هى كسفينة الطوفان لا في قذارتها ، وإنما في فائدتها . وهى الوسيلة الوحيدة لإخراجنا من مأزقنا هذا .

اقنعت عبد الله ، وهذا سهل وايم الحق ، ولم يبق إلا أن نتعاون أنا وهو على عناد أخيه عميرة الذى تنقص ثقته بسيارته وبنفسه ، والذى أمام الواقع المر يحاول أن يقنعنا بأن إصلاح « الموتور » لا يكلفه إلا نصف ساعة من الوقت على الأكثر ، ونحن كلنا نعلم ـ وهو في ضمننا ـ أنه قضى أكثر من ساعتين في فكه وتقطيعه . ورأينا أن البحث البيزنطى لا يفيد مع أهل بيزانس ولا مع عميرة . وحفظا للوقت أخذنا في لم شعث « موتوره » ووضعه في القفف والاطباق والصناديق ووضع الكل مع البسط والعجوز المزهوة داخل السيارة . وبالرغم عن امتناع عميرة ، اخرجنا حبلا احكمنا ربطه بين مقدم السيارة ومؤخر العربة . ولم يبق إلا ان تدفع أنا وعبد الله وعميرة

السيارة من خلف لنعين البغل على جر هذا القطار الصغير . وخلفنا النساء يتبعننا متعثرات ، ومجعجعات متنهدات الواحدة خلف الاخرى على طريقة الهنود الحمر . كان عملنا شاقا . وكان الجو مغيما قاتما يشبه تماما أجواء نفوسنا القلقة المضطربة بين أمل الوصول الى رادس وخيبة المبيت فى هذا القفر بين الخوف والجوع . وهذا ما جعلنا ندفع السيارة بكل ما أوتينا من قوة . وهذا ما دفع شيطانتنا الصغيرة لجر ساقيها جرا ورفع الرمال التى يحملها الريح ويذروها فى عيوننا وأنوفنا بكل أمانة .

كنت وأنا أدفع السيارة ، مجبورا على لمسها بكفي مشمئزا من لمس هذه المادة اللعينة التى يسمونها الحديد ولم يشق الانسان إلا حين أراد أن يستغنى عن أخيه الانسان ويستعيض عنه بالحديد . وأخذت أفكر فى الحديد ، وفى عصرنا هذا ، عصر الآلة والحديد ...

كل منا له فى بيته ركن للمهملات ، تلقى به الاشياء التى لم تعد تصلح لشيء واكثر هذه الأشياء من هذه المادة المشؤومة «الحديد» . وكل هذه الاشياء اقتنيناها يوما ما فرحين، كأحسن وأنفع اختراع أحدث لراحتنا . فهذه الآلة لغسل الصحون استعملتها يوما وبعض يوم ، ووجدت أنها تكسر من صحونك اكثر مما تغسله ، واستعملت اسبوعا على الأكثر ، ثم ألقيت فى ركن المهملات،لأن المرأة الضعيفة وجدت آلتها تنزع منها صبرها ومن وقتها الثمين اكثر مما تنزع من قشور ولب ، أمثال هذه الآلات الحديدية لا يقع تحت حصر ، فكلها مفيدة ، وكلها استعملت أياما ثم ألقيت فى مقبرة الاختراعات .

* * *

تصور فرح كولومبس وهو يرى شواطيء أمريكا ، ثم بعملية حسابية بسيطة اضربه فى فرح قائد رحلة «سيتروان»

السوداء والصفراء ، وهو يصل الى مرفإ الأبحار بعد قطع أدغال افريقيا أو جبال الهملايا ، الحاصل عندك من عملية الحساب ، هو ما شعرنا به جميعا ونحن نصل الى الطريق المعبدة ، جادة النجاة • فالنساء تولون بكل حلوقهم ، ونحن نتبادل التهاني : هذا يداعب عنق البغل البطل ، وذاك يطنب في مدح السائق البدوي ويصفه بكل أوصاف حاتم طي وعنترة بني عبس •

وصلنا على الساعة السابعة والنصف الى بلدة حمام الأنف فودعت عبد الله وعميرة ، وشكرتهما على ما لاقيته من حفاوة في هذه النزهة اللطيفة الرائقة ، وتواعدنا على إعادتها في الاسبوع المقبل ، وانا اضمر إخلاف الوعد على أن نهيىء غداءنا باعتناء أكثر ، وودعتهما وانا أبكي بدموع الأسف على فراقهما، والسرور بنجاتي ووصولي الى بلدة بها محطة للقطار ، حتى أني من فرحتي قبّلت الفتاة الشيطانية ، ودخلت مشتى حمام الأنف افتش عن ••• مطعم •••

ام حواء

مقـدمـة أم حـواء

على نمط ولسان : طـه حسين

قدم إلى ابنى وصديقى على الدوعاجى قصته هذه قبل الطبع ، ثم قدمت إلى بعد الطبع ، وقد أعجبت بقصته ، كما أعجبت بعنوانها (أم حواء) ، وربما أعجبنى عنوانها أكثر مما أعجبتنى القصـة ، وأنا معجب بالعنـاوين أيما إعجـاب !

قد لا يكون عنوان قصتنا هذه طريفا ، وقد لا يجرى به اللسان فى سهولة وقد لا يستسيغه السمـع ! وقد يكون هذا العنوان غريبا ، وقد لا يخلو من بعض النفرة ! بل قد يكـون غـامضا بعض الشىء · ولكن تـوضيحه يسير ، ومع كل هذا ، فالعنوان صحيح ، وهو يختصر القصة كلها فالقصة هى قصة (أم حواء) ·

أمامك فى هذه القصة امرأتان ، أو على الأصح أمامك امرأة وابنتها ، أمامك امرأة عجوز تحب ابنتها أيما حب ، وتحنو عليها أيما حنو ، وأمـامك هذا الـزوج - زوج حواء - وقد اختار له صديقى المؤلف اسم (آدم) وقد أحسن اختيار هذا الاسم لهذا الزوج الذى ضاق ذرعـا بحماته التى يدفعها حبها لابنتها أن تنـاصب نسيبهـا (آدم) العداء ونشأ عنه مصاعب وعتاب لم يكن لتذليلها من سبيل ·

في هذه القصة نظرية تناقض نظرية العلامة «ديكرت» في موضوع الحماة · وتناقض أيضا نظرية بول «هرفيو» · كما تناقض نظريات الاغريقيين ـ بما فيهم من سقراط وابقراط ـ مناقضة تامة · ولكنها مع ذلك صحيحة صادقة · نظرية تثبت خطر الحماة ، وان معاشرة الحماة لا تضمن خيرا ، لا لابنتها ولا لزوج ابنتها · وهذا يستلزم شقاء وآلاما أكثر مما يستلزمه موت الحماة حيث لا يدوم حزن ابنتها عليها أكثر من أسبوع أو أسبوعين على الأكثر ، وإذن فحياة الحماة لا تضمن الخير ، والانسانية مضطرة أن تضرع الى الله أن لا يبقى حماة على ظاهر الدنيا · وهي مضطرة الى هذا الدعاء أيما اضطرار !

طه حسين

طبق الأصل : علي الدوعاجي

نهاية أعزب

ـ 1 ـ (*)

وقعت حوادث قصتنا قبل صدور قانون التمسك بقرون (... والمرغوب من حضرتكم إخلاء الجنة في ظرف ثمانية وأربعين ساعة وليست دعواكم من أن (من واجب الملاك وضع حاجز بين كرمة سكناكم وسانية التفاح) ليس من الوجاهة في شيء ، وكان من و جبكم أن لا تمسوا رزق غيركم بسوء . اما وقد فعلتم وشهد الشهود ممن يستنشاق بشهادتهم أنهم راوكم وانتم تسرقون الغلال ليلا النيء منها والناضج بمعونة افعى فقد حكمت المحكمة بان تخلوا الكرمة كما وجدتموها يوم سكناكم من الأجل المذكور أعلاه .

تنبيه : ارسلت نسخة الى جارتكم (أم حواء) وابنتها لوقوعهما في مثل ما وقعتم فيه .

(المسجل : عزرائيل)

(*) ذكرت مجلة « الفكر » أن لهذه القصة خمسة فصول . أما الفصلان رقم (1 – 2) فقد تسلمناهما من الاستاذ توفيق بكار – مشكورا – نقلا عن مخطوطة المؤلف .

وقع هذا الاعلام في يد آدم وقوع الصاعقة فهو حديث عهد بالحياة وهو فى حيرة من أمره • أين يذهب بعد مضى الأجل المضروب ؟ أين يسكن ؟ ولكن بيوت الجارة عامرة ! لم يبق أمامه إلا أن ينزل الى الأرض • نعم ! ولم لا ؟ أليست الأرض أوسع بكثير من عدن المرصوصة بالملائكة رصا ، وهو لم يعد يطيق معاشرتهم بعد ما شهر أمر سرقته للفلال ؟ نعم • قد حلت الهجرة الى الأرض حيث لا يعرفون عنه شيئا ، الى الأرض مأوى الجناة أمثاله •

بينما هو فى تأملاته اذا بباب الكرمة يطرق خفيفا • من يكون الطارق يا ترى ؟ أهو محضر آخر أتى ببطاقة أخرى ؟ أم هم أعوان الشرطة الزبانية اتوا لاخراجه بالقوة ؟

وجم آدم لمراجعة موقفه ذاك • وأخيرا بعد أن شجع نفسه بكوب (كوثر) ممزوج بقليل من الماء تقدم وفتح المزلاج واذا بالطارق ابنة جارته وشريكته فى الجناية تدخل عليه وهى منقبضة النفس تحمل فى يدها جريدة (صباح الجنة) وهى الجريدة اليومية الوحيدة التى كانت تطبع إذاك فى (عدن) •

أخذ الجريدة بدون أن يفوه بكلمة ، وبدون أن يرد سلام جارته اللطيفة • أجال فيها نظراته الملتهبة • وفى الصفحة الثانية تحت اعلانات (سيارات فردوس) فى المكان المخصص من الجريدة لقضايا البوليس الملائكى ، قرأ آدم ما يلى تحت عنوان (سرقة) :

« حكم أمس على المسمى آدم ، القاطن فى شارع سدرة المنتهى وعلى المسماة أم حواء وعلى حواء ابنتها ، القاطنتين فى نفس الشارع المتهمين بسرقة سانية التفاح الواقعة فى شرق الشارع نفسه » •



قال هذا والشرر يكاد يتطاير من عينيه · ثم انطوى على نفسه ·

وقال : « وجع يقطع امعائي · هذا من جراء تفاحك يا غادرة ! » ·

ـ : « وأنا أيضا ، يا آدم ! سنستأنس بهذا ، إنهم يسمونه مرض الغائط كما قاله القاضي · ولكن لا يجب أن نعمل شيئا في الجنة إلا اذا · · · » ·

ـ : « يا خائنة ! هنا في الجنة ؟ أتريدين أن نعمل مخالفة جديدة ؟ ومن هذا النوع القذر يا خائنة ؟ إن هذا المرض قد أصابنا جزاء على جريمتك الاولى · وقد طردنا · هذا جزاء من يستمع إلى أقوال النساء ! إنهن لا يستحيين ولا ينبت على وجوههن شعر ، أمثالك » ·

ـ : « أجهشت بالبكاء ، وكالعادة ألقت برأسها على صدر آدم · وانحصرت فيه حتى كادت تدخل في ضلعته المعوجة · فلان لها قلبه ، وجعل يلحس دمعها عن جفونها ، والدمع يغلبه ، ويفيض على وجنتيها ، فيلحسه عن وجنتها الملتهبة بلسانه ، وقد نزلت على وجنتها دمعة كبيرة · ثم سقطت على شفتيها القرمزيتين · فمسح هذه الدمعة بشفتيه ، ومع أنه قد تطعم ملوحة هذا الماء ، فقد استعذبه · وما التصقت الأربع شفاه حتى أحس أن المسكينة حواء قد ارتخت بين يديه ، وكانت هذه أول قبلة وآخر قبلة في الجنة ·

ـ 2 ـ

كانت نجوم السماء تلمع لعاناا أعجب آدم كل الاعجاب اذ هو لم يعهد النجوم في الجنة · لم ير آدم نجوما ولا ظلاما قبل اليوم · ولم يكن ثمة ليل مظلم في الجنة · كانت الجنة كلها نورا · ولقد طرب آدم لظلام الليل على الارض كل الطرب ·

ولقد أعجبته هذه النجوم التي تشبه دموع حواء ، والبدر ! ! إنه ليشبه تلك الدمعة اللامعة على شفتي حواء • وكأنه تذكر القبلة ، لانه قام من مرقده وأخذ يفتش عن حواء برفق حتى لا تستيقظ أمها اللعينة • وأخيرا عثر عليها جالسة خلف « العشة » التي ابتناها لها آدم في صباح ذلك اليوم • اقترب منها آدم ثم جذبها من يدها قائلا :

ـ ما تنظرين ؟••

ـ تلك البقع البيضاء حول تلك الدائرة المشرقة ، أنا لم أرها قبل اليوم • كانت الجنة مضاءة ليلا ونهارا بطريقة واحدة ، فما للدنيا تغير حالها بعد ساعات ؟ لقد كان منذ ست ساعات قرص آخر يضيء الكون (؟ ؟) فما بال ذلك القرص المضيء قد ذهب وحل محله هذا الذى ـ وان كان جميلا ـ لكنه لا يضيء كالآخر •

ـ أى نعم ، حواء ، أنا في حيرة وفي خوف اذ لو دام هذا عوض الآخر لما أمكن لى أن أبتنى عندما أستيقظ غدا كوخا آخر لى •

ـ أستبنى كوخا لك ! وهذا كوخنا يسعك لو أحببت أن تسكن معنا •

ـ حواء ! أتذكرين يوم خروجنا ••••

ـ أى نعم ، آدم •

ـ يوم أن مسحت لك قطرات الماء النازلة من عينيك •

ـ أى نعم ، آدم ، أذكر ••••

ـ هلا أنزلت شيئا منها الآن لأمسحه لك •

ـ هي نازلة الآن فامسحها (بخبث) •

ـ إنني لا أراها ·

ـ النور لا يكفي الآن لرؤيتها · ولكنني أحسها هنا (وهي تضع يدها على شفتها السفلى) ·

كان آدم يعلم أنها تكذب · ولكنه لم يرد ان يبخسها فأخذ يلحس شفتها بلسانه ، وكأنه وجد لذة في لحسه شفتها فأخذ يمتصها مصا ، وكانت هي بدورها ترد له الفعل بمثله ، وهي متكئة على مرفق يديها · وكانت يده تحت عنقها · أزاح آدم برأسه لكي لا يمنع نور البدر الضئيل أن ينير وجهها فوجده أجمل مما كان عليه نهارا · قال ـ وهو لا ينظر الا لشفتيها وأنفها الاقنى الجذاب وعينيها ـ كلمته الخالدة التي ما زال يرددها أحفاد أحفاد أحفاده في مثل هذا الموقف : « آه لو دام هذا ! ·· » ·

كانت حواء تتصنع البكاء دائما لكي يمسح آدم دموعها بلسانه · وكانت تجد لذة في إعادة العملية كلما أمكن لها ذلك ·

وفي يوم كانت أم حواء تشرب الماء من « فلتة » كانت قرب بيتها ، وكانت ابنتها بجانبها تسرح شعر رأسها بأصابعها ، نظرت العجوز لسطح الماء فرأت صورة وجهها المجعد لأول مرة : فلم تجده يشبه وجه ابنتها النضير في شيء ولا حتى وجه آدم ، فبكت اذ ذاك العجوز المسكينة وبكت حتى فطنت ابنتها لبكائها ، فما أسرع أن ذهبت تستدعي آدم الذي كان جالسا فوق ربوة جادا في سلخ جلد ضبع قتله البارحة · ونادته بصوت يذوب رقة :

ـ آدم ! ··· أمي يسيل الماء من عينيها هيا آدم امسحه ··· لها ·

تعود آدم سكنى الارض وتعود صيد الوحوش ايضا . لكن شيئا واحدا يقلق آدم أكثر من غيره من الاشياء هـو سقـوط المطر فى بعض الاحيان ، وهجير الشمس فى أحيان اخرى ، فلماذا هذا التبديل من الضد الى الضد ! ثم ما هذه الـدمدمة التى يسمعها كلما امطرته السماء بوابلها اوطلها ؟ إنه لا يشبه هدير الجمل ولا أصوات الحيوانات الاخرى .. من تراه يعبث لإقلاق الناس بهذا الصوت ؟..

وكلما تصور آدم صاحب هذا الصوت تراه يجرى نحو حواء التى تكون بالطبع فى بيتها فى ذلك الحين .

مصادر القصص

عنوان القصة	مكان وتاريخ النشر
1) كنز الفقراء	العالم الأدبي اوت 1935
2) جارتي	نشرية التطور الاجتماعي 1936
3) في شاطئ حمام الأنف	جريدة السرور سبتمبر 1936
4) الصباح المظلم	القلم الحر 26 جوان 1938
5) راعي النجوم	الباحث جوان 1944
6) احلام حمدي	الباحث جويلية 1944
7) الركن النير	الثريا نوفمبر 1944
8) امن تذكر جيران بذي سلم	الباحث فيفري 1945
9) مجرم رغم انفه	الأسبوع 24 ديسمبر 1945
10) قتلت غالية	الأسبوع 7 جانفي 1946
11) موت العم باخير	الأسبوع 21 جانفي 1946
12) سهرت منه الليالي	الأسبوع 11 مارس 1946
13) سر الغرفة السابعة	الأسبوع 26 ماي 1946
14) نزهة رائقة	الباحث جوان - جويلية 1946
15) أم حواء	الفكر جويلية 1959